
رواياتي
الطبعة ٤
- رواية -
العائد
من بابل
أحمد ناصر
دار اكتب
رواية
العائد من بابل
أكتب للنشر و التوزيع





العائد

من بابل

للمزيد من الكتب والروايات الحصرية
انضموا ل جروب رواياتي
fp/groups/Rwalaty



العائد
من بابل

أحمد ناصر
الطبعة الأولى ، القاهرة 2017
غلاف : أحمد فرج
تدقيق لغوي : خالد المصري
رقم الإيداع : 2874 /2015
I.S.B.N: 978-977-488-355-2



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01147633268 – 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com



العائد

من بابل

رواية

أحمد ناصر



دار اكتب للنشر والتوزيع


رواياتي



إهداء

بطبعي شخص ملول..غير صبور بالمرة..المعاملة معي تحتاج إلى صبرٍ وبالٍ طويلٍ..

تلك الرواية لم تكن لتخرج بالشكل اللَّائق سوى بنصائح وإرشادات العديد من الرجال.. الذين لم يبخلوا عليَّ بالوقت أو بالنصائح..

أودُّ أن أُوجه شُكري وأول إهداء لي في حياتي للآتية أسماؤهم:

- الكاتب والقارئ وصديقي المخلص/ أحمد إبراهيم
- الكاتب وصديقي/ كريم محمد علي
- الكاتب / أحمد عمرو



- الكاتب الشاب / محمد غنيم

- الكاتب الشاب / إبراهيم الجندي

- القارئ المتميز / محمد أشرف

***



" هذه الرواية مُقتبسة عن قصة حقيقية.. بمعنى أدق مُقتبسة عن قضية حقيقية..

حيث إنه في صباح أحد أيام شتاء عام 2005م في قرية تُدعى (عزبة شمس الدين) التابعة لمركز (بني مزار) بمحافظة (المنيا) بصعيد مصر..

تم العثور على عشر جثث تعود إلى ثلاث أسر مختلفة، وهي مذبوحة بطريقة رهيبة ..

ولم يتم العثور على مرتكب تلك المذبحة البشعة..

ولم يتمكن أحد من معرفة حقيقة ما حدث في تلك الليلة المشئومة..

وتم تقييد القضية ضد مجهول".


روايتي



1

"ستُدمَّر مُدُنكم، سوف تسقط حُصونكم..ستسود السماء وتمطر دماءً..سيقتل الأخ أخاه..لن يجد رادعًا..ستنتشر الأمراض..فقد غَضِبت الآلهة..ستحاولون الاختباء..ولكن ليس طويلًا..ستقتلون أطفالكم بأيديكم حتى لا يروا وبالكم..لن تتركوا رضيعًا أو شيخًا..ستحرقون الأرض بأيديكم.. هذا هو الظلام..وهذه هي النهاية".

أغنية (الدمار السرمدي)

من تراث حضارة (الأزتيك) المندثرة..

***



الزمان: نوفمبر 2005م

المكان: عزبة (شمس الدين) التابعة لمركز (بني مزار) بمحافظة (المنيا) في صعيد مصر.

جلس الحاج (عبد القادر) على أريكة خشبية صغيرة أمام باب منزله المصنوع من الطوب اللِّبن كأغلب منازل تلك القرية الصغيرة، وبجواره صينية موضوع عليها براد أزرق صغير اسودَّ أسفله من كثرة معانقته للنيران، وبجانبه عدة أكواب صغيرة بها بقايا شاي كان يحتسيه، وراديو صغير أحمر اللون يبثُّ العديد من الأغاني القديمة، ولكن ما كان يبثه في هذا الوقت ليس سوى صوت إلكتروني مُشوَّش..



ملامح مصرية بسيطة هادئة تراها كل يوم في كل مكان..

لم يكن به شيء استثنائي.. بشرة سمراء اللون من أثر التعرُّض للشمس الحارقة أثناء رعاية الأرض والزرع.. أنف طويل ومُدبَّب أسفله يقبع شارب كثيف لكنه مُنمَّق ومهذب.. عينان سوداوان مُجهدتان تحرسها هالات من نفس اللون يعلوها حاجبان كثَّان.. شعر رأسه اختلط سوادُه بشيبه، وإن غلب الشيبُ قليلًا نظرًا لسنوات عمره التي تجاوزت الخمسين ربيعًا..

كانت الشمس في طريقها للغروب محتجبةً وراء السحب الرمادية المصاحبة لشتاء ديسمبر القارس، فلم يتجلَّ منها طوال هذا اليوم سوى بعض الخيوط الذهبية الباهتة التي لا تبعث على الدفء بقدر ما تبعث على البرودة التي تنهش في الأوصال..

وشوارع القرية الضيقة غير المُعبَّدة هادئة بعد صلاة العصر إلا من بعض السائرين الذين لا يتجاوز عددُهم أصابع اليدين، نظرًا لعودة الناس إلى منازلهم بعد قضاء حوائجهم من سوق القرية المجاورة لهم.. لأن قريتهم لم يكن بها سوق تحتوي على جميع احتياجاتهم اليومية..

كان الحاج (عبد القادر) يُداوِمُ على الجلوس بنفس المكان منذ زمنٍ طويلٍ.. حيث إنه بعد أن يفرغ من أداء صلاة العصر في مسجد القرية الكبير.. كان يعود ليجلس على أريكته ليحتسي الشاي، ويستمع إلى الصوت المُشوَّش الصادر من الراديو.. حتى غروب



الشمس، وبعدها يدخل إلى منزله ليستريح من عناء الجلوس على الأريكة الخشبية الصغيرة.

ظَلَّ الحاج (عبد القادر) ينظر إلى الطُّرقات الخالية أمامه إلا من بعض السائرين حتى قاطَع صوتٌ ودودٌ حالة التأمُّل اليومية التي يعيشها:

- سلام عليكم يا حاج..

نظر (عبد القادر) باتجاه صاحب الصوت ليجد الشيخ (زكريا) صديقه منذ الطفولة يُلوِّحُ له مُرحِّبًا..

الشيخ (زكريا) كان من الرجال الذائع صيتهم في عزبة (شمس الدين) نظرًا لاحترافه الرقية الشرعية والحجامة وملازمته للمسجد طوال الوقت.. لا يوجد له عملٌ معروفٌ أو مصدرُ دخلٍ ثابتٍ، ولكن يُطلق عليه جميع أهل القرية لقب (الشيخ)...

كما أنه لم يَنَلْ قسطًا وفيرًا من التعليم، وليس لديه أيُّ مؤهل دراسي، لكنه وبالرغم من هذا يحفظ القرآن بالإضافة إلى أنه فصيح اللّسان، ولديه قُدرةٌ كبيرةٌ على الإقناع والتأثير فيمن حوله..

وهو رجلٌ طويل القامة.. أبيض البشرة.. ذقنه مُهذَّب.. عيناه عسليتان لا تشفَّان عن أي انفعالٍ.. يرتدي جلبابًا أبيض قصير.. دائم الإمساك بمسبحة يدوية طويلة.. كان بشوش الوجه، والابتسامة لا



تُفارِقَ وجهه أحيانًا، لا يمكنك سبر أغوار تلك الابتسامة ولا تستطيع تحديدها أهي ودود أم خبيثة!

ابتسم الحاج (عبد القادر) في وُدٍّ وهو يردُّ على صديق عمره قائلًا:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، اتفضل يا مولانا..

جلس (زكريا) بجواره ثم ربت على فخذه وهو يقول له:

– الليلة معادنا بعد صلاة الفجر إن شاء الله..

أمَّن (عبد القادر) على كلامه قائلًا:

– إن شاء الله.

فاستطردَ (زكريا):

– أنا خلاص جاهز.. إنت بقى جهزت الحاجة اللي طلبتها منك؟

– كل حاجة تمام يا زكريا متقلقش.. جهّزت كل حاجة، والمياه اللي إنت أعطتها لي رشيتها حوالين الباب، وقرأت سورة ياسين، وأنا بروشّها، والبخور أديله والع في البيت قيمة يومين منطفاش بس مش فاهم برضك ليه كل دا؟ إنت ولا كأنك هتعمل دقة زار؟

ضحك الشيخ (زكريا) ضحكة أستاذ يسأله تلميذه في أمرٍ بديهيٍّ لا يحتاج إلى شرح أو تفسير وهو يقول له من وسط ضحكاته:



- جِن إيه بس أستغفر الله العظيم؟!

ثم أعقب ضحكته بنوبة سعال عنيف، وبعد أن هدأ سُعاله قال:

- أنا قلت لك من الأول.. الرصد اللي على المقبرة دي من المَرَدَة، والمَرَدَة دول أقوى، وأشرس أنواع الجن، وعشان أعرف أفُك الرصد دا لازم نعمل كل الحاجات اللي قولتلك عليها دي..

عبد القادر متعجبًا:

- منا مش فاهم برضه؟ قولت لك نكسر الباب مش هيجري حاجة.. الباب عاصي بس شوية إكمنه بقاله كام وسبعتلاف سنة مسوجر.. شوية عافية، وتكسير هتلاقيه إتفتح على طول..

- بُص يا عبقادر يا أخويا.. إنت لو جبت لودر عشان يفتح باب المقبرة دي مش هيفتحه أُمال إيه؟.. الموضوع إن المقبرة دي شكلها فيها ملك أو وزير عشان كدا مرصودة بجن قوي.. أو يمكن مثلًا فيها حاجة مهمة عشان كدا الفراعنة مش عايزين حد يوصلها!

ثم اعتدل في جلستِه مُتوجِّهًا إلى الحاج (عبد القادر) بجسده قائلًا له:



- بس تعالى خُد هنا.. أنا عايز أفهم اشمعني طقّت في دماغك فجأة تُحفُر تحت بيتك؟ إيش ضمنك وأكد لك إنك هتلاقي آثار؟

- بعدين يا عبقادر يا أخويا يعني متأخذنيش انت مش محتاج فلوس، ولا دهب يعني عشان تحفر وتدوّر على آثار تحت الأرض؟

بدأ صوت الحاج (عبد القادر) يعلو قليلًا مُحاولًا تبرير موقفه لصديقه قائلًا:

- هفهّمك الفولة.. بالك من قيمة شهرين كدا سمعت زي كل أهل البلد ما سمعوا ان الواد سيد ابن الحاج رمضان حفر تحت بيته عشان يدوّر على الدهب ولقي كام تمثال فرعوني صغيرين كدا.. بس طبعًا هو قال إنه ملقاش حاجه رغم إن الفواعلية، والأنفار كانوا يومياتي بعد الفجر بيخرجوا ياشولة ردم قد كدا من البيت عنده..

بس هو كان عايز يغزي العين باين..

ضحك الاثنان ثم عاد (عبد القادر) إلى حكايته:

- ولما جيت في مرة سألته إنت حفرت تحت بيتك ليه وجرجرته في الكلام، وطبعًا عملت نفسي مصدّق إنه ملقاش حاجة عشان يفتح معايا في الكلام.. عرفت منه إن بلدنا دي في يوم من الأيام كان فيها معبد كبير أيام الفراعنة وياما وزرا وحكما اندفنوا هنا تحت الأرض دي.



ثم دبَّ بقدمه اليُمنى على الأرض ليتأكد من وصول المعنى إلى صديقه ثم استطرد قائلًا:

– وإنت عارف إن سيد خريج جامعة ومتعلّم وطالما قال كدا يبقى عارف هو بيقول إيه..

قولت أجرب حظي أنا كمان مانيش خسران حاجة، وبالك كمان لو مكنتش لاقيت حاجة تحت البيت عندي كنت هحفر في الأرض بتاعتي كمان..

عقّب (زكريا) ساخرًا على كلامه:

– سبحان الله يا أخي.. يعني أختار حتة أنا كمان، وأحفر فيها هلاقي آثار..

ضَحِكَ (عبد القادر) من كلامه وهو يقول له:

– إنت هتنُق فيها من أولها، دي أرزاق يا مولانا، وبعدين جرّب حظك يا أخي بس أبو قسم بقى..

ضحك (زكريا) قائلًا من وسط ضحكاته:

– على رأيك يا عبقادر يا أخويا..

ثم عادت الجدية لتغزو ملامحه مرة أخرى، وكأنه لم يكن يضحك منذ لحظاتٍ قائلًا:



- المهم زي ما فهمتك هنصلي الفجر جماعة، ونطلع على المقبرة أعمل اللي عليا، وندبح الدبيحة اللي انت مجهزها، وبعون الله الباب هيكون مفتوح النهار ده..

لازمن دم يا عبد القادر المَرَدَة مبيرضهاش غير الدم..

أومأ (عبد القادر) برأسه متفهمًا لكلام صديقه، وهو يقول له:

- أنا عارف يا زكريا يا أخويا، وعارف كمان إنك الوحيد اللي تقدر تفتح باب المقبرة دي عشان كدا أول حاجة عملتها لما لقيت المقبرة دي إني كلمتك طوالي..

عقَّب (زكريا) على كلامه قائلًا:

- سيبها على الله وربنا يقدم اللي فيه الخير..

وابتسم بخبثٍ قائلًا:

- بس متنساش حلاوتي بقي لما باب المقبرة يتفتح الليلة دي بعون الله.

تجهَّمت ملامح (عبد القادر) قليلًا، وإن لم يؤثر ذلك في المودة في صوته وهو يقول:

- عيب يا زكريا إنت أخويا..



ضحك (زكريا) ثم نهض يهم بالرحيل فأمسكه (عبد القادر) من يده، وهو يقول له بودٍّ حقيقي:

- إستنى يا مولانا تشرب شوية شاي.

- تُشكر يا حاج يدوبك أنا هقوم أروح وأجهز نفسي لليلة دي، وربنا ييسرها من عنده.. يالا سلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

مضى (زكريا) في طريقه إلى منزله في حين سرح (عبد القادر) قليلًا بعد توديع صديقه له..

ففي داخله شعور سيئ أن هناك خطبًا ما.. لن تمرَّ تلك الليلة بسهولة.. لن تمر.. أبدًا!

***

بدا إبليس مخيفًاو ومهيبًا، وهو جالس على عرشه الرخامي الأسود الذي يصل ارتفاعه إلى أكثر من مترين..

كان يجلس في قاعة سوداء كئيبة، وقاتمة مليئة بالأعمدة العالية.. يغلب عليها اللون الأسود، والفِضي، ومُزيّنة برسومات بسيطة تحكي قصة المعركة الأولى التي خاضها بنو جنسه من الأبالسة ضد الجان، وقصة المعركة الثانية التي خاضها الجان ضد الملائكة..



يجلس أمامه في صفين يمينًا، ويسارًا قُوَّادُ جيشه،ومساعدوه وأمراءُ مملكته من الأبالسة..

كانت أنيابه بارزة، وعيناه كأنهما جمرتان من الجحيم.. يرتدي حَرملة بلون أحمر زاهٍ كلون الدم البشري.

كان إبليس يتحدّث في أمرٍ ما مع أعوانه، وهو يشير بأصابعه ذات المخالب باتجاه أحد أباليسه..

ثم فجأةً يصمت، وبصمته يصمت كل من حوله.. ثم يسمع الجمع طرقًا على باب القاعة..

يُفتح باب القاعة العملاق من تلقاء نفسه.. سمع جميع من بالقاعة صريره الحاد ثم دلف منه (مينوخ) أحد أعوان إبليس إلى القاعة السوداء..كان (مينوخ) قائد إحدى سرايا جيش الشياطين.. وقد نجا من معركة الملائكة الأولى.. كان قصيرًا لا يتعدى طوله المئة وخمسين سنتيمترًا، ولكنه كان مقاتلًا بارعًا لا يُشَقُّ له غُبار..

توقّف على بُعد خطوات من عرش إبليس ثم انحنى له احترامًا وهو يقول له:

– سيدي المُبجّل العظيم.. لقد انتشر خبر موت عدوك آدم بين البشر، وقد سادت بينهم حالة من الحزن عليه..



جلجلت ضحكات إبليس في جميع أرجاء الأرض.. حتى إن البشر البعيدين عنه بمئات الألوف من الأميال أقسموا أنهم قد سمعوا ضحكاته..

ثم توقَّف عن قهقهته، وهو يصيح في جذل:

– أخيرًا.. مات آدم، وترك بنيه وحدهم..

ردَّ عليه مينوخ قائلًا:

– حسنًا يا سيدي المُبجّل.. أعتقد أن الوقت قد حان لإفناء هذا الجنس، وعودة سيادتنا على الأرض مرة أخرى.. نحن أهلٌ للقتال، وقد خُضنا مئات المعارك مع وحوش الأرض وضد الملائكة، بينما البشر لم يستلوا سيفًا واحدًا طوال تاريخهم القصير، حتى إنهم لا يعرفون كيف يصنعون واحدًا..

رَدَّ عليه إبليس وأنيابه تبرز مرة أخرى، ويتطاير الشَّررُ من عينيه (حرفيًّا):

– لا أحتاج إلى رأيك يا مينوخ..

ثم نهض من فوق عرشه، فبدا عملاقًا، ثم قال بصوت جهوري:

– أيا شياطيني.. فنى عدوي، وعدوكم، وعُمرُ أبنائه، وأحفاده لن يطول على هذه الأرض.. أريد منكم أن تحتفلوا..



سرت همهماتٌ بين شياطينه الجالسين، لكن إبليس رفع قبضته اليسري، وهي مضمومة.. فتوقفت همهاتهم، وساد الصمت في جميع أنحاء القاعة، وهو يقول بصوت هادئٍ:

- كلوا واشربوا واحتفلوا بقُرب النصر..

ثم تحوَّل هُدوؤه إلى صياح هادر، وهو يقول:

- أدعو أبناء شعبي كافةً.. للاحتفال..

انحنى مينوخ أمام سيده، وهو يقول له صاغرًا:

- أمرك يا سيدي العظيم المُبجّل.

ثم همَّ بالانصراف فأوقفه إبليس قائلًا:

- أحضر لي إيلاي يا مينوخ.. الآن.

رد عليه مينوخ بنفس الخضوع وإن شابته لمحة حِقد وغِلٌّ:

- أمرك يا سيدي العظيم المُبجّل..

لحظات قليلة حتى ظهر إيلاي يطلب الإذن بالدخول على شيطانه الرجيم..

كان إيلاي من أبرع قادة الشياطين، لكنه كان عكس مينوخ فقد كان عِملاقًا يُناهز الثلاثة أمتار طُولًا، ويمتلك عين سيده الحمراوين نفسهما، ويرتدي حَرمَلة سوداء، وخوذة من ذات اللون، ويبرز منها



قرنان قصيران يميلان نحو الأمام كقرني استشعار، وقد خاض إيلاي حروبًا ضروسًا ضد الجان، ونجح في إسقاط العديد من مملكاتهم..

كذلك قاد مقاومة الأبالسة ضد الملائكة، ونجح في صَدِّهم بعض الوقت..

انحنى إيلاي أمام إبليس، وهو يقول له:

- تحياتي إليك يا سيدي..

تزامَنَ هذا مع إذن إبليس بدخول الخدم من الشياطين إلى القاعة السوداء بإشارة من إصبعه، وهم يحملون طعامًا غريبًا يضعونه أمام الصفين الجالسين أمام عرش إبليس..

تم الانتهاء من وضع الطعام أمام أمراء إبليس، وخرج الخدم من القاعة في صمتٍ كما دخلوا إليها، وبقي نظر الجميع مُعلَّقًا بإبليس، فلا أحد يستطيع أن يأكل بدون أمر إبليس الذي أسعده هذا الأمر، وأرضى غُروره المَرضيّ.. فأشار إليهم بيده في خُيلاء بمعنى أن يبدؤوا في الأكل..

بدؤوا في الأكل، في حين ظلّ نظر إيلاي معلقًا بإبليس الذي قال له بغبطة واضحة:

- ما رأيك في خبر موت آدم؟

تكلم إيلاي بصوتٍ شبيه بفحيح الثعبان قائلًا:



- أيها المُعظم.. إن البشر تعدادهم لا يتجاوز المئة ألف بينما نحن بدون أخذ الجان في الاعتبار تعدادنا يساوي أربعة أضعاف عددهم تقريبًا..

ونصفنا من المحاربين الأشداء، فإذا قُمنا باجتياح قُراهم الصغيرة سينتهي أمرهم تمامًا، وتخلو الأرض لنا مرة أخرى، ويمكنك وقتها جعل بنات حواء خادماتٍ لك، وأسرهنّ طعامًا لوحوشك الضارية.. هذا قولي، ورأيي أيها المعظم..

ظلّ إبليس يفكر في كلام قائد جيشه قليلًا ثم قال:

- بما أن حواء ما زالت على قيد الحياة.. فلا شكّ أن الله سيُرسل الملائكة مرةً أخرى ليقفوا بجانب البشر، ويدافعوا عنهم..

لكن هذا احتمال ضعيف، ورغبتي في القضاء على هذا الجنس السخيف أكبر من خوفي من هؤلاء المجنحين.

ثم ابتسم في شراسة فقال له إيلاي بخبث:

- إذن أنت موافق يا سيدي.

ردّ عليه إبليس بخُبثٍ مُماثلٍ:

- لن أُفوّت فرصة سانحة للقضاء على البشر بالطبع..

ثم صاح بصوتٍ هادر صمّ أذان كل مَن بالقاعة، وتوقفوا عن التهام طعامهم الذي كان يتناولونه في صمت ليقول:



- بعد أن تنهوا احتفالكم.. سنعقد مجلس حرب..

ظلوا على حالة سكونهم، وكأنهم تحوّلوا إلى تماثيل من الشمع الأسود، ولمْ يأمرهم إبليس بمعاودة الأكل.. في حين عاد الأخير مُوجِّهًا حديثه إلى إيلاي قائلًا:

- استعد ستذهب معي إلى (ذاثاروس).

امتقع وجه إيلاي، وزاد وجهه سوادًا، وخرجَ صوتُه رغمًا عنه مُرتجفًا وهو يقول:

- ذاثاروس..ألم يُقتل يا سيدي؟!.. لقد سمعتُ عدة أقاويل من بني جنسه بأنه قد قُتل..

- مقاتل مثل ذاثاروس حتى الملائكة لا تستطيع قتله بسهوله، ولقد سمعتُ أيضًا أنه قد نُفيَ في أعماق البحار..ولم ينجح أيُّ أحدٍ من قبيلته أن يصل إليه..

انتفخت أوداج إبليس في فخر وهو يقول له:

- سيدك عندما يريد شيئًا فإنه يحصل عليه يا إيلاي.. بعد مغيب الشمس استعدَّ للذهاب معي.

عادت الارتجافة إلى صوت إيلاي رغمًا عنه، وهو يقول:

- سمعًا وطاعة يا سيدي المعظم.



ثم انحنى احترامًا لسيده الجهنمي، وانصرف مُسرعًا من القاعة السوداء، وإبليس الكبير يحدّث نفسه قائلًا ناظرًا إلى سقف قاعته:

- لقد وعدتك.. لقد وعدتُك أيها الخالق أني سأغوي هاته المخلوقات التي فضّلتها عليَّ، والآن أعدك مرة أخرى أنهم سيعودون إلى الطين الذين جاؤوا منه مرة أخرى.. مثلما فعلت مع سكان الأرض الأولى.. عندها سنرى مَن منّا أفضل.. أنا عزازيل الناسك أم مخلوقات الطين؟!

وتطاير الشَّررُ من عينيه (حرفيًّا).. مرة أخرى!

***

- إنها فرصتكم كي تتطهروا من ذنوب أبيكم قابيل.

قالها (مهلاييل) بحدَّةٍ.

كان مهلاييل فارع الطول.. أبيض البشرة.. له لحية كثيفة، وشعرٌ طويلٌ فاحم السواد.. جسده ضخم.. عيناه سوداوان يشعُّ منهما الذكاء، وملامحه محددة تنمُّ عن الطيبة وإن أظهرت طباع صاحبها الحادة.

ردَّ عليه رجلٌ ضخم الجثة، أسمر البشرة، أجعد الشعر بغلظة:

- لن يحكمنا نسل هابيل ما دمنا نتنفس..



كانوا يجتمعون في كوخ صغير من القش.. ستة من الرجال نصفهم من نسل هابيل، والنصف الآخر من نسل قابيل..

ردَّ أحد الرجال المُنحدرين من نسل هابيل:

– ليس الأمر مَنْ يحكم مَنْ.. لكن الحكمة أن نظل مُتوحِّدين.. بعد وفاة أبينا الأكبر (آدم) لا نعرف ماذا سنواجه؟ ولا أي مصير ينتظرنا؟

عاد (مهلاييل) ليقول في لهجة أقرب إلى الضراعة:

– هيا يا رجل.. ليس هنالك معنى من وجود نسل قابيل في أرضٍ بعيدة عنا.. أي حكم تنشدونه في أرض صحراوية مُقفرة لا تُمطر عليها السماء، ولا تَرعى فيها ماشية.. فبحق ربكم اختفى قابيل منذ زمن، وباختفائه اختفى معه ثأرُنا..

ثم بدأ صوته يستعيد حزمه، وهو يقول:

– ولو كنت أسعى إلى إثارة قتال بيننا.. لما كنت دعوتكم هنا للعودة إلى أرضنا الكبرى مرة أخرى.. لقد أسّستُ مدينة، وسميتها (بابل)، وهي كبيرة، وأرضها خصبة، ونعم الله بها وفيرة لماذا لا نتقاسمها معًا..كإخوة؟!!

نَظَرَ له الرجل الضخم وهو يقول بغطرسة:

– لا حاجة لنا في البقاء بأرضكم..



ثم نَهَضَ من مجلسه، وتبعه مرافقوه واستدار خارجًا من باب الكوخ الصغير الذي يحتويهم، ثم توقَّف فجأة، ونظر إلى (مهلاييل) الذي ظهرت علامات الحسرة جليّة على وجهه، وهو يقول له ساخرًا:

- مهلاييل.. نحن قوم حرب لا نعيش على الزراعة أو الرعي مثلكم.. بل نعيش على الصيد، ولا مانع لدينا أن نصطادك أنت، وقومك في أحد الأيام..

هَبَّ (مهلاييل) واقفًا، وأمسك بعصا غليظة كانت بجواره، وهَمَّ باتجاه الرجل الضخم الذي باعد بين ساقيه، واستعدَّ لتلقّي اندفاعة (مهلاييل) ..

- لا تفعل ذلك.

اندفع ذلك الصوت الرخيم من أحد أركان الكوخ المُظلمة صائحًا بتلك الجملة..

التفت الكل مُندهشًا إلى مصدر الصوت ما عدا (مهلاييل) الذي أحنى قامته قليلًا لصاحب الصوت الذي تابع قائلًا:

- لن ندع الفرصة للشرِّ أن يتغلغل في نفوسنا، ونقاتل أنفسنا بأنفسنا، ولا ننتبه لعدونا الحقيقي المُتربِّص بنا.



وقعت بعض خيوط الشمس المتسللة من بين أعواد القش المصنوع بها الكوخ على وجه صاحب الصوت..

كان رجلًا طاعنًا في السنِّ، غلبَ الشيبُ شعرَ رأسِه، ولحيته التي تصل إلى منتصف صدره، ويتوكَّأ على عصا خشبية بسيطة، لكنها مصنوعة بإتقان.. عيناه رماديتان واسعتان،وقد قام الزمن بترك توقيعه في وجهه..

ذُهِلَ الرجل الضخم وهو يقول:

– أين كنتَ أيها العجوز؟ كيف لم نَرَك طوال الوقت؟ أأنت من أعوان إبليس؟

سار العجوز بهدوء حتى صار على بُعد خطوتين من الرجل الضخم الذي زاد تعجبه، واندهاشه لما أحسَّه من رُعبٍ، ورهبةٍ أمام ذلك العجوز برغم فارق القوة والحجم الذي يميل إلى صالحه، لكن كان هناك قوة خفية يتمتع بها هذا العجوز لم يفهم الضخم كُنهها..

وقف العجوز وتأمَّل ملامح الضخم قليلًا، وهو يقول له:

– لم تربي لأن الشرَّ قد أعمى بصيرتك.. فلم تعد ترى إلا ما يُغذي شرَّك فقط..

تراجَعَ الرجل الضخم وهو يقول لمرافقيه:

– هو مجرد عجوز مُخرِّف فقط..



استوقفه العجوز وهو يقول له:

– إذا جاءك الشَّرُّ فلا تنتظر منا أي مساعدة.. لقد حكمتَ على نفسك، وعلى قومك بالبقاء مُشتَّتين بعيدين عن موطنكم، وعن أهلكم إلى أبد الأبدين..

نظر الرجل الضخم إليه نظرة مليئة بالحقد، ثم وجَّه نظره إلى (مهلاييل) قائلًا له:

– لقد نجوتَ اليوم، ولكن بيننا موعدًا آخر..

ثم خرج من باب الكوخ، فأشار (مهلاييل) للرجلين الباقيين معه أن يذهبا ليقفا على مدخل الكوخ في حين بقيَ الرجل العجوز.. الذي جلس على بِساط مصنوع من جلد الماعز موضوع في أحد أركان الكوخ، ثم أشار إلى (مهلاييل) أن يُجالسه..

جلس (مهلاييل) بجواره ثم قال له:

– لقد حاولتُ أن أُعيدهم الى صوابِهم.. لكنهم مثل جدِّهم الأكبر، العند والكبرياء والحقد يملأ أعينهم وقلوبهم.

ردَّ عليه العجوز مُهوِّنًا:

– هذا اختيارهم..ونحن لا نملك مُحاسبَتهم..

ثم نظر إليه في إعجابٍ قائلًا:



- لم يُخطيء جدك الأكبر (آدم) بتوليتك القيادة، ولم تُخطئ أيضًا جدتك (حواء) بمباركتها لهذا القرار..

انتفض جسد مهلاييل عندما سمع اسم جدته غير عابئٍ بباقي كلمات العجوز له:

- جدتي! أين جدتي (حواء) أيها الشيخ؟

أشاح العجوز بنظره بعيدًا، وترقرقت عيناه بالدموع، وهو يقول في تأثُّرٍ واضح:

- صدقني لا أعلم.. لا أحد يعلم سوى الله..

زَفَرَ (مهلاييل) في غضبٍ ثم قال للحكيم:

- ما زال ذلك الحلم يُراودني..

انتبه العجوز لكلمات (مهلاييل)، وهو يقول له:

- قُصَّه عليَّ مرةً أخرى!

نهض (مهلاييل) من رقدته ثم شدَّ قامته، وأغمض عينيه، وبدأ يحكي..

عبر إحدى غابات الأرض المنسية المظلمة.. العالق بها رائحة الشر الخالص، ورغم أن الوقت كان صباحًا، والشمس كانت ساطعة في ذلك التوقيت إلا أن تلك الغابة فقط.. كانت أكثر بقاع الأرض



إظلامًا عن غيرها.. كان إبليس يسير، وكأن الأرض هي مَن تتحرك تحت قدمه في وجلٍ دون أن يتحرك هو.. يتبعه إيلاي قائد جيشه.. توقَّف الأول فجأة، وهو يقول لتابعه:

- ذاثاروس هنا..حولنا!

تلفَّت إيلاي حوله رغم الظلام الكثيف المنتشر حوله، لكنه كان يتمتعُ بقُدرة خاصة ألا وهي الرؤية في الظلام.. تعجَّب إيلاي من عدم مقدرته على رؤية ذاثاروس رغم قدرته الفائقة، فقال بصوتٍ مُتردِّدٍ:

- سيدي المعظم..أنا لا أرى ذاثاروس في أي مكانٍ حولنا!!

- صه.. إذا قلتُ لك إنه هنا.. فهو هنا..

ارتجف جسد إيلاي رغمًا عنه.. هو لم يتعامل مع ذاثاروس وجهًا لوجه من قبل.. لكنه حارب تحت قيادة إبليس ضد ذاثاروس من قبل.. لقد شاهده، وهو يُسقطُ أقوى ممالك الشياطين وحده أثناء المعركة العُظمى التي وقعت بين الجانّ والشياطين.. شاهده، وهو يصرع وحوشًا لا يستطيع حتى إبليس الاقتراب منها.. شاهده، وهو يُقاتل قبائل كاملة من الشياطين وحده، ويصرعهم.

لقد نجا من حرب الجان، والشياطين الأولى، وهو الوحيد من بني جنسه الذي حقّق انتصارات على الأباليس.. حتى جيش الملائكة المُجنّحون القادم من السماء لم ينجح في القضاء عليه.. لقد كان



أسطورة يتهامَسُ بها بنو جنسه سِرًّا بعد انقضاء سطوتهم، وانتهاء سيطرتهم على الأرض..

انتشله صوت إبليس من تفكيره الذي غرق فيه حتى النُّخاع، وهو يقول:

- أنا متأكد من ذلك.. اتبعني..

ثم انحرف إبليس عن طريقه، واتخذ طريقًا قصيرًا مُمتلئًا بنباتات طويلة متشابكة الأغصان.. ذات أوراق حادة، ومُدبَّبة.

فتبعه إيلاي دون تفكير، وساروا خطوات قليلة، والظلام يزداد انتشاره، ويصبح سميكًا، وتزامن مع انتشار الظلام موجة من البرودة تجتاح أجسادهم النارية.. لم يتأثر إبليس بهذا ظاهريًّا على الأقل.. بينما إيلاي استلَّ سيفًا ضخمًا من غِمده، ورفعه أمام وجهه.. كان يحاول استمداد الأمان من سلاحه.. حتى وجود قائده، وسيده إبليس لم يشعره بالأمان، فهو يعلم قدرات ذاثاروس جيدًا..

وفجأةً سطعَ ضوءٌ قويٌّ أمامهم أجبر إيلاي أن يُغمض عينيهو ويتراجع في تخبُّطٍ.. بينما رفع إبليس كفَّه أمام عينه ليحجب عنها هذا الضوء المفاجئ والغريب.. ثم ظهر أمامهم هو.. من أذاقهم الأمَرّين أثناء قتاله.. إنه هو..ذاثاروس!

***



سار (مهلاييل) صاعدًا ذلك التلّ الأخضر الصغير المُنبسط الذي طالما كان يجلس على قمته، وهو صغير..

هنا أخبره جده (آدم) عن الله، وتعاليمه التي لا بد من التمسُّك بها.. حكى له عن كيفية خروجه من الجنة.. حكى له عن لحظة الضعف البشري التي نفذ إليه إبليس من خلالها، ونجح في إخراجه من الجنة.. حكى له عن المدينة التي يحلم أن يُنشئها هنا في أقصى شرق الأرض، وتكون ملاذًا، ومأمنًا لكل البشر..

استمرَّ (مهلاييل) في صعود التل، وهو يسترجع زكرياته مع جده الأكبر حتى وصل إلى قِمته تمامًا، ووقف ينظر إلى البون الأخضر الشاسع الممتد حول السهل، ولمح أسوار مدينته المصنوعة من الخشب السميك، والحجارة البيضاء..

– مهلاييل!.

جاءه الصوت مناديًا عميقًا رخيمًا كما كان دائمًا.. إنه صوت جده الأكبر (آدم).

التفت (مهلاييل) غير مُصدِّق إلى مصدر الصوت ليجد ضوءًا أبيض شديد السُّطوع يُجبرك على عدم النظر إليه..

صاح بأعلى صوته:

– جدي!



جاءه الصوت الذي طالما بثّ فيه القوة مرة أخرى حنونًا دافئًا:

– جئتُك مُحذِّرًا يا ولدي..

ارتجف صوت (مهلاييل) رغمًا عنه، وهو يقول:

– تُحذِّرُني من ماذا يا جدي؟ ولماذا لا أستطيع رؤيتك؟

ثم حاول التقدُّم باتجاه مصدر الضوء، وهو ما زال مُجبرًا على إغلاق عينيه.. حتى عاجله صوت جده مرة أخرى، وهو يقول له:

– انظر إلى الغرب باتجاه (بابل).

نظر (مهلاييل) غربًا باتجاه أسوار مدينته، وتعجَّب مما يرى..كانت هناك غيمة رمادية اللَّون تنبعث الصواعق من داخلها لتضرب الأرض، وتُفجِّرَها، وهي تقترب من أسوار المدينة..

اتسعت عينا (مهلاييل) فالسماء زرقاء صافية، وخالية تمامًا من السُّحب.. إلا تلك الغيمة الرمادية الكبيرة.. بدأت الغيمة تقترب من الأسوار الغربية لبابل، ثم بدأت تضرب بصواعقها الأسوار، فتهدمها، وأشعلت الحرائق في المدينة..

وسمع (مهلاييل) صُراخ الناس ينبعث من المدينة، والحرائق تنشب في أرجائها.. حاول التحرُّك من مكانه لينقذ قبيلته وأهله، لكنه كان مُقيَّدًا لا يستطيع الحراك من مكانه قيد أنملة..

فالتفت مذعورًا إلى الضوء، وهو يصرخ:



- جدي ماذا أفعل؟ مدينتي تحترق!!

ازدادت شدة الضوء حتى اضطرَّ (مهلاييل) أن يُدير رأسه ليقي عينيه شدة الضوء، وصوت جده يرتفع قائلًا:

- الشَّرُّ سيأتِي لك مِن الغرب.. اصنع سلاحًا من الحديد تُدافع به عن نفسك، وعن أهل مدينتك.. الشَّرُّ يقترب منكم يا ولدي..

تباعَدَ الصوت وهو ما زال يُكرِّرُ الكلمة نفسها..

- الشَّرُّ يقتربُ منكم.

***

تنهَّد (مهلاييل) بصوت مسموع، وهو يقول للحكيم العجوز:

- كل ليلة تقريبًا أحلم بهذا الحلم..

ردَّ عليه الحكيم مستفسرًا:

- وجدك؟ هل رأيته؟ أم فقط هذا الضوء؟

- لا الضوء فقط.. الحلم يتكرّر بنفس تفاصيله كل ليلة بدون تغيير.

- جدك يحاول إيصال رسالة لك..

- أنا أعلم.. لكني إذا لم أعلم ماهية الخطر الذي يجبُ عليَّ مواجهته.. فكيف أستعدُّ له؟!



- اصنعْ كما أمركَ جدُّك فقط.. اصنعْ سلاحًا من الحديد..

استند (مهلاييل) بقبضته المضمومة على ذقنه غارقًا في تفكير عميق،واحترم الحكيم صمته فلم يحاول أن يقاطعه حتى قال (مهلاييل) مُستفسرًا:

- هل تتوقّع مثلًا أيها الحكيم أن جدي يحاول أن يُحذّرَني من جماعة (قابيل)؟

- لا أعتقد ذلك.. الأمر أعقد من هذا بكثير.. لكن لا بأس سنكتشف الأمر لاحقًا.

نهض (مهلاييل) من مكانه، وهو يقول للحكيم:

- حسنًا سأجمع كل الحدادين في المدينة؛ لنرى ماذا سنصنع من الحديد..

ثم ازداد حزم صوته، وهو يقول:

- وأنت أيها الحكيم أُريد منك جمع كل الحطّابين، وأريدُ أيضًا أن يتم جمع أكبر قدر ممكن من الأحجار لتدعيم السور الغربي..

ثم نادى أحد الرجال الواقفين على باب الكوخ الصغير، وعندما دخل قال له:

- أريد جمع أكبر عدد من الرجال الأشداء الأصحاء غدًا في الصباح أمام البوابة الأمامية للمدينة.



أومأ الرجل برأسه ثم هُرع خارجًا ليُلبي أوامر قائده..

في حين ابتسم الحكيم في إعجاب وهو يقول لــ(مهلاييل):

– لم يخطيء جدُّك الأكبر عندما جعلك المسئول عن بنيه من بعده..

نظر إليه (مهلاييل) وهو يقول له بصرامة:

– (آدم) أخطأ مرة واحدة، وقد عاهد الله أنه لن يُخطيء مرةً أخرى أبدًا.

***



خرج الحاج (عبد القادر) من باب المسجد بعد أن فرغ من أداء صلاة الفجر، وقد لفحته نسمات الهواء الباردة فلملم أطراف الشال الصعيدي الذي يرتديه على جسده بعد أن ارتدى حذاءه، وأخذ ينظر في وجوه من حوله يلتمَّس رؤية وجه الشيخ (زكريا) في وجوههم لكنه لم يجده.. فنظر نظرة أخيرة إلى باب المسجد، ثم سار باتجاه منزله ولم تمضِ عدة دقائق حتى كان عبد القادر قد وصل إلى منزله ففتح بابه ودخل..

وقف في مكانه لحظات، كان التوتر يملأُ مُحيطه بالكامل، أنفاسه تتصاعد، ونبضات قلبه تعدو كأنها في ماراثون..

التقط نفسًا عميقًا محاولًا السيطرة على أعصابه ثم اتجه إلى حيث باب المقبرة، ووقف أمامه مَشدوهًا يتأمَّل الرموز الفرعونية الغريبة التي لا يفقه منها شيئًا.. كان يفكر في عدة اتجاهات.. هل يكون هناك ذهب داخل المقبرة؟ ما قيمته؟ كيف سأبيعه؟ وبماذا سأُفسّر لأهل



العزبة الثراء المفاجيء الذي سيحلُّ بي؟ هل سينجح الشيخ زكريا في فتح المقبرة؟

لم يستطع طرد تلك التساؤلات من رأسه حتى، وهو يقوم بتجهيز ما طلبه منه الشيخ زكريا فقام بوضع صندوق خشبي صغير يوجد به ديك رومي أمام باب المقبرة مباشرة، ووضع إلى جواره إناء به ماء مطر، وبضع وُريقات مكتوبًا بها حروف مُتقطعة كتبها هو بخطّ يده بناءً على طلب زكريا.

تناهى إلى مسامعه في هذه اللحظة دقّات على باب منزله فاختطفته تلك الدقات من الأمواج المتلاطمة لبحور تفكيره.. فسار يُقدِّم خطوة، ويُؤخِّر خطوة تجاه الباب.. هو يشعر أن تلك الليلة لن تمر على خير، تلك الحاسة السادسة التي تظهر أحيانًا، وتُخبرك أن ثمة شيئًا خطأ، وأن الأمور التي تسير بسهولة ويسر يكون وراءها مصيبة وكارثة..

تمنى في هذه اللحظة أن يفتح الباب، ولا يجد الشيخ زكريا خلفه.. لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. أدار مقبض الباب، وفتحه ليجد زكريا واقفًا بابتسامة غريبة لم تَرُقْ له لكنه أفسح مجالًا لصديقه لكي يدخل إلى منزله، وبمجرد دخوله منزله بادره قائلًا:

– ها يا حاج كله تمام؟

أجابه عبد القادر باقتضاب:



- كله تمام..

ظلّت الابتسامة على وجه زكريا ثم وقف مباشرةً أمام الباب العلوي الذي يؤدي إلى المقبرة، ثم أغمض عينيه، وأخذ يتمتم بكلمات غريبة لم يستطع عبد القادر فهم كُنهها.. ثم توجَّه إلى الإناء الذي يحوي ماء المطر، فأخذ يتوضأ بهذا الماء، وبعد أن فرغ من الوضوء قام بسكب ما تبقَّى من المياه على باب المقبرة ثم أخذ الوريقات، ونثرها حول باب المقبرة بترتيب معين، وأخذ يُتمتم بنفس الكلمات المجهولة بالنسبة لعبد القادر، وهو يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف بهدوء، وهو ما زال يتمتم بكلماته ثم ازدادت حدة حركته وأخذ صوتُه يرتفع تدريجيًّا..

بُهت عبد القادر مما يراه، وأخذ الخوف يتسلل إلى قلبه وضوء الشموع المتناثرة حوله زاد من خوفه، فشعر أن الظلال التي يُلقيها ضوء الشموع هي شياطين أتت من قلب الجحيم لتلتهم روحه عِقابًا له على جشعه..

وازدادت حِدَّة تمايُل زكريا إلى الأمام والخلف، وتصبّب عرقه غزيرًا على وجهه وكأنه انتهى لتوِّه من الاستحمام، وأخذ يتشنَّج وهو يصدر حشرجة مخيفة.. في حين أحس عبد القادر بأن هناك طيفًا يحوم حوله وأحس باختناق شديد..



فجأةً توقف زكريا عن حركته، ثم أخرج من غياهب جلبابه سكينًا غريب الشكل، توجد على نَصلِه رموزٌ غريبة تُشبه الرموز الموجودة على باب المقبرة، ثم أخرج الديك من قفصه، وللعجب لم يصدر من الديك أيُّ صوتٍ نهائيًا.. ثم قام زكريا بتمرير نصل السكين على رقبة الديك حتى فصلها تمامًا عن جسده، وغمس يده في دماء الديك حتى احمرَّ لون كفيه تمامًا، وقام بوضعهما على باب المقبرة وهو يقول كلمة واحدة فقط

"قم بها..قم بها..قم بها".

ظلَّ يُرددُ الكلمة بطريقه هيستيرية لعدة مرات، وهو يتشنّج، وما زال عبد القادر مَشدوهًا مما يرى، وقد فقد القُدرة على الكلام أو الحركة.. حتى سمع الاثنان صوت قرقعة عظيمة تأتي من باب المقبرة، ورفع زكريا يده عن الباب ليفتح من تِلقاء نفسه.. تنفّس عبد القادر الصعداء في حين بقي زكريا يجاهد لالتقاط أنفاسه، وهو غارقٌ في عَرَقِه، فأخذ عبد القادر أقرب شمعة إليه، وهو يُزيح جسد زكريا المتصلّب لينزل إلى المقبرة، ونزل إلى المقبرة بعد أن رفع منديله إلى أنفه، وهو ينظر إلى محتوياتها مبهورًا..

تماثيل صغيرة مصنوعة بالكامل من الذهب تُمثّل الإله ست إله الشرِّ، حُلي ذهبية على شكل الجعران الفرعوني المقدس، تماثيل قطط ذات لون أسود..



أَخَذَ يُحدِّقُ فيما أمامه مشدوهًا حتى إنه لم يشعر بزكريا، وهو يسير في المقبرة يتحسس محتوياتها وفي عينيه نظرة مُرابٍ يهودي عتيد، وفجأة لمح عبد القادر تلك البردية الملفوفة والموضوعة بجوار تابوت صاحب المقبرة..

شعر أن هناك قوًى خفية تُسيِّرُه، وتدفعُه دفعًا لالتقاط تلك البردية.. حاول أن يقاومْ ولكنه لم يستطع.. انحنى ثم التقطها بيده، ورفعها إلى وجهه، وقام بفضِّها.. لم يدرِ لماذا فعل هذا؟ لقد فقد سيطرته على جسده تمامًا..

نظرَ إلى الرسومات الغريبة والرموز المكتوبة في البردية.. هو يشعر أنها مألوفة لديه، وفي الوقت نفسه لا يفهمها..

توقَّف عقله عن العمل نتيجة هذا الشعور المُتداخل، وفجأةً استيقظت حواس عبد القادر كلها مرةً أخرى.

عندما سمع صرخة عظيمة تأتي من الأعلى.. صرخة بذلك الصوت الذي طالما سمعه يتألّم.. صوت ابنه.

***



وقف ذاثاروس بطوله المهيب، وقرونه التي تلتف بشكل دائري حول نفسها، وأعينه الكاملة السواد، وفمه الشبيه بالمنقار الحاد أمام إبليس وإيلاي..

ثم تحدَّث بجمل كثيرة من لغة الجن التي لا يعلمها إلا إبليس فقط، وبادلَه إبليس بضع كلمات من نفس اللغة، ثم صاح إبليس فجأة باللغة التقليدية:

- أنت تعرف لغتنا بالتأكيد فالأفضل أن تتكلم بها.. لدينا الكثير من الأمور العالقة التي تحتاج إلى تسوية بيننا..

صدر صرير حادٌّ من فم (ذاثاروس)، ثم طوَّح رأسه إلى الوراء، وخرجَ من ظهره جناحان عملاقان ليرفرفا على جانبي جسده ليُحلّقَ مرتفعًا عن الأرض قليلًا بمترين أو ثلاثة..



تفاجأ إبليس من ردة فعل ذاثاروس، في حين قام إيلاي برفع سيفه، لكن الأول أوقفه بإشارة من يده، وهو يقول موجهًا حديثه إلى (ذاثاروس):

– لننسَ أننا كنا أعداء في الماضي يا (ذاثاروس) ولنتحدْ..

خرج صوت (ذاثاروس) كفحيح ألف ثعبانٍ مصحوبًا برنين أجراس وهو يقول ساخرًا:

– ما زلنا أعداء إلى الآن أيها الملاك الساقط من السماء..

تجاهَلَ (إبليس) سخريته وهو يقول:

– عدونا الآن واحد..

ضحك (ذاثاروس) وتردَّد صدى ضحكته في الغابة بشكل مخيف أدخل الخوف في قلب (إبليس) نفسه إذا كان يمتلك واحدًا من الأصل ثم قال:

– أتقصد البشر.. إذن أتريدُني أن أتحد معك ونقاتل البشر معًا؟!

ثم بدأ صوته يحتدُّ، وسرعة خفقان أجنحته تزيد، وهو يقول:

– وتنـــزل الملائكة مرة أخرى من السماء، وتقاتلنا وتهرب أنت لأنك لن تموت أبدًا..



حاول (إبليس) أن يتكلم لكن (ذاثاروس) قاطعه بصوت هادئٍ ممتليء بكل خُبث الدنيا، وشراستها:

– ليس معناه أنه بزوال مُلكي تنقطع معرفتي.. لقد علمت ما دار بينك، وبين الخالق في السماء.

ثم هدأ خفقان أجنحته حتى سكنت تمامًا، وعادت قدماه ذواتا الحوافر لتلمسا الأرض مرة أخرى، ثم تعود أجنحته لتلتحم بظهره مرة أخرى، ثم يخطو خطوات هادئة نحو (إبليس)، وهو يقول له:

– قُل لي يا لوسيفر:

إذا حاربت معك.. ما الذي سوف أجنيه؟ ما الذي سيعود عليَّ بمشاركتك القتال؟

ردَّ عليه (إبليس)، وقد بدأ يشعر أن زِمام المبادرة المُفلت منه مُذ بداية حديثهما يعود إليه مرة أخرى قائلًا له:

– حسنًا، لتكن منطقيًّا يا عدوي القديم.. فلول جيشك بلا قائد، ومنتشرة بجميع أرجاء الأرض.. لن يستطيع أحد سواك أن يجمع تلك الفلول..

ثم اقترب من (ذاثاروس)، ووضع يده اليسرى على كتف الأخير اليُمنى، وهو يقول له:



- أنت الآن مَنفي.. بلا قوه.. بلا سيادة.. بلا أرض أو عشيرة، أنا لديَّ مُلكي.

ثم أشار بسبابته اليمنى إلى الأرض قائلًا:

- هُنا مُلكي.. ثم إنه من المفترض أن يوجد لديك أنت الدافع الأقوى.. فالبشر استوطنوا أرضك، وليس أنا..

صمت لحظاتٍ ثم عاد ليقول بصوت هادئٍ:

- أنا فقط أريد الانتقام من هذا الجنس التافه، وأنت تريد أرضك، ومُلكك.. إذن نحن الاثنين لدينا الهدف ذاته..

نظر (ذاثاروس) بهدوء إلى كفٍّ (إبليس) اليسرى الذي يستند على كتفه اليمنى، ثم أعاد نظره إلى عيني (إبليس) مرة أخرى الذي سارع بسحب يده عن كتف (ذاثاروس)، ثم عاد يقول:

- أولًا إذا كان هذا الجنس تافه كما تدعي.. لماذا وقف الخالق بجانبهم إلى الآن؟ ثانيًا مُرْ تابعك الأحمق بإنزال سيفه.. فلا أعتقد أنه ذو قيمة أو تأثير هنا..

لم يُكذّب إيلاي خبرًا، وأنزل سيفه وتراجع خطوتين مُعلنًا احترامه مُجبرًا لــ(ذاثاروس) في حين قال الأخير، وهو ينظر في عين إبليس:



- أتعلم شيئًا يا (عزازيل).. عيناك الآن تشبهان عيون البشر.. صحيح أنه من بعد المعركة لم يعد باستطاعة أي جني حتي أنا أن يظهر نفسه لأي بشري، ولكني رأيتهم من قبل..

ثم اقتربَ من إبليس حتى أصبح على بُعد سنتيمترات قليلة من وجهه، وهو يقول مُدققًا في عينيه:

- نفس الأعين يا عدوي.. أنت تُشبههم كثيرًا..

انتفض (إبليس) في غضب وأبرز أنيابه، وهو يصيح قائلًا:

- لا تُقارني بتلك الكائنات الدنيا.. لا أحد يُضاهيني حتى أنت يا ذاثاروس..

سادت بينهم نظرات مُتحدية قليلًا ثم قال (ذاثاروس) مُنهيًا الحديث:

- حسنًا، ولكن لي شرطين.. إذا وافقت عليهما فسأجمع فلول جيشي، وسأقاتل البشر إلى جانبك..

تنفّس (إبليس) الصعداء، وهو يقول:

- لك ما تطلبه قبل أن أسمعه حتى.

- لا تكن مُتعجِّلًا يا (عزازيل)، أول شرط أن قواتي، وجميع بني جنسي بعد تحرير الأرض من البشر لن يتأمَّر عليهم شيطان أبدًا.



– لك هذا، لن يخضع بنو جنسك من المَرَدة، والغيلان لأي شيطان.

– جيد..ثاني شرط، كل الأراضي الوسطى بما فيهم أراضي البشر لا يدخلها شيطان أبدًا ما حييتُ..

صمت (إبليس)، وهو ينظر إلى (ذاثاروس)، وهو يقول له:

– إذا نجحنا في دحر البشر، فثق بأنك ستأخذ أكثر مما طلبتَ..

ثم ضحك قليلًا، وهو يقترب من (ذاثاروس) ونظر في عينه وهو يقول له:

– تقول إن عيني تُشبهان عيون البشر.. أقول لك أنا أيضًا شيئًا.. أنت لا تختلف عن البشر في أي شيء..

نظر له (ذاثاروس) مُطوَّلًا ثم قال له:

– لا أستطيع نفي كلامك أو تأكيده.. لكن بمجرد أن ألتقي بهم في ميدان القتال.. ستتضح كل الأمور.. عندما أجمع شتات جيشي.. سأعود لك..

وسطع ضوء مُبهِر أغشى أعين إبليس، وإيلاي وبعد انقشاع هذا الضوء.. لم يكن هناك أي أثر لذاثاروس..

بقي إيلاي متفاجئًا، ومأخوذًا بسبب ما رآه.. لقد رأى اثنين من أعتى مُقاتلي الكون يقفان أمام بعضها البعض وجهًا لوجه..



بقيَ على حاله ساكنًا حتى عاد صوت إبليس بهدوء كاسرًا سكونه ليقول له:

- الآن بدأت الحرب..

***



عام 600 ق.م

قارة أطلانتس..

في قاعةٍ مرمرية بيضاء اللون.. متلألئة الجُدران، ومرتفعة السقف، وبها مصادر إضاءة غير مرئية.. فتشعر أن الإضاءة تأتي من كل مكان، وفي كل اتجاه.. جلس الإمبراطور (مينارهيس) آخر إمبراطور لقارة أطلانتس داخل قصره الإمبراطوري.. كان بائسًا.. شاحب الوجه.. زائغ العينين.. وأمامه يقف رجلٌ يرتدي زيًا عسكريًا فيروزي اللّون، ويمسك في يده بحربة طويلة في نهايتها تقبع بلورة مضيئة..

قال الإمبراطور بحسرة:

– أهذه هي نهايتنا؟ أهذه هي نهاية أطلانتس العظيمة؟



رد عليه الرجل العسكري بصوت متحسر أيضًا، وإن كان ما يزال صوته محتفظًا ببعضٍ من قوته وهو يقول:

– لقد حاولنا القتال قدر ما استطعنا.. لكن تلك الطُّفيليات لم تدع لنا فرصةً للتفكير..إنها تُسيطر على أجساد شعبنا بسرعةٍ هائلة، وتدفعه دفعًا إلى قتالنا.

ردَّ عليه الإمبراطور بصوتٍ باكٍ:

– إذن، ما الوقت المُتوقَّع لسقوط عاصمتنا يا قائد الحرس الإمبراطوري؟

أطرق قائد الحرس رأسه أرضًا وهو يقول:

– ليس الكثير يا سيدي.. لكن قواتنا الإمبراطورية تحاول صدَّهم لبعض الوقت حتى تعطي جلالتكم الفرصة لركوب سفينة الإنقاذ، والعودة إلى كوكبنا الأمِّ..

– وماذا سيحلُّ بباقي شعبنا؟ وماذا سيحلُّ ببقية سكان هذا الكوكب المسكين؟

– هذه ضريبة يجب أن تُدفَع يا مولاي.. لن نستطيع إنقاذ الجميع..

ثم أضاف قائد الحرس قائلًا:



- هذا كوكب تلك الطفيليات يا سيدي، وهذه هي أرضهم.. لنترك ذلك الكوكب الملعون لتلك الطفيليات، ولنعدْ إلى كوكبنا..

في تلك اللحظة تناهى إلى مسامعهم صوت انفجار قريب.. فاتسعت عينا الإمبراطور، وقائد حرسه يقول له بفزعٍ:

- إنهم على مشارف العاصمة يا سيدي.. ليس لدينا وقتٌ..

في تلك اللحظة اندفع رجلٌ أشيب الشعر يرتدي ثوبًا أبيض شفافًا إلى داخل القاعة الإمبراطورية، وهو يقول في فرح:

- لقد وجدت وسيلة مناسبة لتحجيم تلك الطفيليات يا سيدي..

اندفع نحوه الإمبراطور فرحًا متناسيًا أبسط قواعد البروتوكول الإمبراطوري وهو يقول له بلهفة:

- أسرِع، ما تلك الطريقة؟

ردَّ الرجل قائلًا:

- أحد معادن كوكبنا يا سيدي بالمصادفة اكتشفتُ أنه يحتوي تلك الطفيليات، ويُقيِّدها.. بل يجعلها في حالةٍ أشبه بحالات الثبات الاصطناعي..

ردَّ عليه قائد الحرس قائلًا:

- وكيف سنقوم باحتوائها؟



قال العالم:

- الأمر بسيط.. هناك صندوق مصنوع من معدن كوكبنا الأم قمت بوضع أحد تلك الكائنات بداخله لنقوم بدراسته فيما بعد إذا سنحت لنا الفرصة ونجونا من هذا الأمر.. أما بالنسبة لكيفية تدمير تلك الكائنات.. فإننا سنقوم بتغيير مكونات إحدى قنابلنا شديدة التدمير، وسنقوم بوضع رقاقات من معدننا الخاص بداخل مكوناتها، وسنضرب بها وسط قارتنا باعتبارها مركز انتشار تلك الكائنات..

اتسعت عينا قائد الحرس وهو يقول بغضب:

- هل جُننت؟ أتريد تدمير قارتنا؟

ردَّ عليه الإمبراطور بصوتٍ يملؤه الأسف:

- لقد دُمّرت قارتنا بالفعل..

ثم استدار باتجاه قائد حرسه وهو يقول بلهجة آمرة:

- جهِّزوا إحدى قنابلنا شديدة التدمير.. سنقوم بتفجيرها مع رحيل آخر سفينة من سفننا، وليرحم الله سكان هذا الكوكب من مصيرهم الأسود.

***



داخل القاعة السوداء، وأمام عرش (إبليس) وقف مينوخ شارحًا لسيده آخر التطورات قائلًا له:

- الآن يا سيدي المعظم.. أصبح لدينا الآن مائة ألف من حملة الرماح، وخمسون ألف من حملة التروس، ومائتا ألف من حمَلة السيوف القصيرة..

هُنا تدخل إيلاي في الحوار قائلًا:

- واستطعت أيضًا الوصول إلى العديد من مُقاتلي قبيلة (السعالب) تقريبًا خمسة آلاف مقاتل، وقائدهم بالخارج ينتظر إذنك المبجل ليدخل ليقدم إليك فُروض الولاء.

تكلّم (إبليس) لأول مرة قائلًا:

- هذا جيد، ولكن ماذا عن مَرَدة الجان؟



إيلاي:

– لم نستطع الوصول سوى إلى خمسة فقط منهم يا سيدي أنت تعلم أنه بعد المعركة الأخيرة، وهم مختبئون ولا أحد يستطيع الوصول إليهم وهؤلاء الخمسة كانوا شريدين وتائهين..

مينوخ:

– سيدي المُعظّم.. لدي اقتراح..

أشار إليه (إبليس) أن يتكلم.. فتردَّد مينوخ قليلًا، وهو ينظر إلى إيلاي ثم حسم أمره، وتغلّب على تردده قائلًا:

– ما رأيك يا سيدي أن نستعين بجماعة قابيل.. لمساعدتنا في حربنا ضد البشر؟

نظر إليه (إبليس) مُطوَّلًا ثم قال:

– لم يصل البشر بعد إلى هذا الحد من الكره الذي قد يجعلهم يقتلون بعضهم البعض بدون سبب.. صحيح أنني جعلتُ هذا مُمكنًا من قبل عندما قتل الأخ أخاه.. لكن كان هناك سبب قوي وقتها..

ثم صمت لحظات ثم أضاف:

– ربما بعد مئات الألوف من السنين يمكن أن يكون هذا ممكنًا بالطبع إذا لم نقضِ على جنسهم التافه كله.. أنا لا أُحبِّذ هذا الاقتراح..



احتلت خيبة الأمل ملامح مينوخ، وخطف نظرة إلي إيلاي فوجده يبتسم بسخرية منه فضايقه هذا.. لقد كان دائمًا إيلاي هو المقاتل المفضل لدى إبليس.. فهو شجاع، ومقاتل قوي وانتصر باسم إبليس في العديد من المعارك..

انتزعه صوت إبليس من تفكيره، وهو يقول له سائلًا:

– هل هناك أيُّ أخبار عن ذاثاروس؟

ردَّ إيلاي قائلًا:

– إلى الآن لا نعرف حتى أين هو..

ثم تساءل في قلقٍ:

– هل يمكن أن يتخلَّى عنا؟

ردَّ عليه إبليس:

– لا أعتقد هذا..

وصمتَ لحظات ثم عاد قائلًا:

– حتى لو تخلَّى عنا.. لن أتراجع عن معركتي الأخيرة.. مهما يكلفني الأمر..

***



شتاء عام 1989م..

تجمَّع عدد من أطفال القرية يلعبون كرة القدم في مدخل عزبة (شمس الدين) كانوا يفضلون هذا المكان لأنه المكان الوحيد في القرية التي توجد به أعمدة إنارة.. حيث كانوا يلعبون من بعد العصر حتى صلاة العشاء، وبعدها يذهبون إلى بيوتهم.. كان هناك طفل صغير يُدعى محمد قصير القامة، أجعد الشعر كثيفه، نحيل الجسد وضعيف البنيان. كان عمره وقتها 7 سنوات.. يقول لأحد الأطفال:

– الدنيا ليّلِت قوي إحنا نروّح دلوقتي..

رد عليه الطفل قائلًا:

– إكمن فرقتك كسبانة عايز تروح دلوقتي!



تدخَّل ثالثًا في الحوار قائلًا:

- الموضوع مش كدا خالص العِشا خلصتو والوقت سرقنا، وإنتوا عارفين كويس إن إحنا قريبين من المقابر..

عند ذكر كلمة المقابر توتر جميع الأطفال، واتفقوا جميعًا على المغادرة مع إطلاق الوعود للتقابل غدًا للثأر..

سار محمد وحيدًا بعد أن ودَّع أصدقاءه في طريقه إلى منزله كانت الشوارع خاليةً تمامًا من المارة ولا توجد أعمدة إنارة في هذا الطريق الواصل بين مدخل القرية ومنتصفها.

كان هناك ضوء شحيح يأتِي من بعض المنازل، لكنه كان كافيًا لينير الطريق قليلًا إلى محمد..

أخذت خطوات محمد تزداد سرعة، وهو يحاول عبور تلك المنطقه الساكنة ثم توقف فجأة.. لقد شعر بحركة ما تأتِي من خلفه.. ليستدير بسرعة إلى مصدر الحركة ليرى قطة صغيرة سوداء اللون تسير وراءه بهدوء ثم تركض سريعًا لتمر من جانبه ليشعر بتيارٍ باردٍ من الهواء يجتاحه..

استمرَّ لثوانٍ حتى اختفت القطة من أمامه.. نظر خلفه قليلًا ليجد الشارع ما زالَ على سكونه فاطمأنَّ قليلًا، وعاد إلى سيرِه.. استمرَّ محمد في السير حتى تناهى إلى مسامعه صوتُ بكاء طفلٍ صغير..



أخذ يلتفت حوله في محاولة منه لإيجاد مصدر الصوت حتى استطاع تحديد مكانه.. زقاق صغير يفصل بين منزلين من منازل القرية.. تقدَّم إلى داخل الزقاق، وصوت البكاء يتعالى، وفضوله الطفولي يدفعه دفعًا إلى داخل الزقاق ليرى ماذا هناك.. حتى رأى طفلًا صغيرًا يرتدي ملابس صيفية لا تناسب هذا الصقيع يرتجف، ومتكومًا على نفسه، ويتشنَّج من البكاء..

رَقَّ قلب محمد لحال هذا الطفل الصغير فتشجَّع على الاقتراب منه ثم جلس القرفصاء أمامه ووضع يده على رأس هذا الصغير وهو يقول له:

– مالك بتعيط ليه؟

ردَّ عليه الطفل، وهو ما زال مُتكوِّمًا على نفسه، ويدفن رأسه بين قدميه:

– محدش عايزني ألعب معاه..

سأله محمد مُستفسرًا:

– ليه محدش عايز يلعب معاك؟

– أنا على طول لوحدي من زمان قوي محدش بيحبني، ومحدش بيخليني ألعب معاه..

ربّت محمد على رأس الصغير وهو يقول له في صوتٍ مُشفقٍ:



- ولا تزعّل نفسك عرّفني طريق بيتك، وأنا بكره أعدّي عليك ساعة العصر، وتيجي تلعب معانا كورة لغاية ما تزهق.. يالا قوم عرّفني بيتك فين..

هدأ صوت بكاء الطفل، وهو يسأل محمد في صوت مرتجف:

- عايز تعرف طريق بيتي فين؟

ردَّ عليه محمد في تلقائية طفولية:

- آه، ومتقلقش والله العظيم هعدّي عليك، وهخليك تلعب معانا..

رفع الطفل رأسه وهو يقول لمحمد بصوتٍ أجش لا يناسب طفلًا في مثل عمره:

- بيتي هنا.

ثم اختفى بياض عينيه، وحلَّ محلهما سواد أدكن مُخيف، وهو يشير بإصبعه إلى الأرض قائلًا:

- بيتي هنا..تحت الأرض..

لم يتمالك محمد نفسه من الرعب، وانحبست صرخته في حلقه فتراجع إلى الخلف يُحاول الهرب فسقط على ظهره، وارتطم رأسه بحجر صغير.. فبدأ رأسه يدور، وحرَّر الدُّوار صرخاته، فأخذ يصرخ، ويصرخ وهو يحاول الزحف ليهرب من هذا الشيء.. ولكن الضربة



كانت شديدة، فأخذ الدُّوار يكتنف رأسه، ولسانه يكفُّ عن الصراخ من تلقاء نفسه، وكان آخر شيء يراه قبل أن يفقد الوعي هو الطفل الصغير ذا العينين السوداوين يتقدَّم نحوه، وهو يضحك ضحكات مخيفة حتى صار أمامه تمامًا..

***



سار (مهلابيل) حتى الكوخ الصغير الذي يداوم على الجلوس فيه مُذ صغره.. حين كانت جدته (حواء) تجلس معه في هذا الكوخ.. أخذ يسترجع ذكرياته مع جدته حتى وصل إلى الكوخ الصغير، وبداخله وجد الحكيم العجوز ينتظره، وبجواره رجلٌ غريبٌ لم يره قط من قبل ..

كان هذا الرجل شديد البياض المشوب بالحُمرة الشديدة، وكان شعره ذهبيَّ اللون، وعيناه زرقاوين كزرقة السماء، ويرتدي رداء من القماش الأبيض الخفيف.. حيَّاهما (مهلاييل) بعد أن جلس أمامهما مباشرة، وبادره العجوز قائلًا:

– لقد بدأ ذاثاروس التحرُّك لجمع شتات فلول جيشه المنهزمة..

اندهش (مهلاييل) من كلام الحكيم فسأل مستفسرًا:



- مَنْ ذاثاروس؟

هنا تكلَّم الرجل الغريب فخرج صوته هادئًا:

- ذاثاروس هو أحد ملوك الجان السبعة الكبار، ويعتبر من أحد أسباب غضب الله على الجان لأنه سفك الدماء، ولم يحكم بالعدل في قومه، وفي آخر سنوات حكمه على الأرض بدأت أطماعه تزيد فجمع جيشًا عرمرمًا من المردة والغيلان، وحارب كل ممالك الجان التي بجواره، بل هاجم أيضًا مملكة الشياطين..

هو مقاتل شجاع لا يهابُ أيَّ شيءٍ، وقدراته خارقة، نجا من كل المعارك، والحروب التي خاضها حتى الحرب العظمى نجح في النجاة منها عكس أغلب أقرانه..

نظر (مهلاييل) مليًّا في عيني الرجل الغريب يحاول أن يستشفَّ ما بداخله وهو يسأله في صرامه:

- وأنت أيها الغريب.. كيف عرفتَ بخبر كل تلك الأمور؟ وكيف عرفت أن ذاثاروس هذا قد بدأ في جمع جيشه القديم؟ ومَنْ أنت؟ أنا لم يسبق لي رؤيتك، هل أنت من جماعة (قابيل)؟

ابتسم الرجل الغريب أو هكذا خُيِّل إلى (مهلاييل) ثم نظر إلى العجوز الحكيم.. فنظر الحكيم بدوره إلى (مهلاييل) قائلًا له متجاهلًا سيل أسئلته:



- الجديد أيضا أن إبليس قد بدأ في تجميع جيشه أمام مدينته السوداء..

نهض (مهلاييل) وهو يصرخ فيهما:

- كيف عرفتما كل ذلك؟

نهض الرجل الغريب بهدوء ثم قام مواجهًا (مهلاييل)، ووضع يده على كتفه، وهو يقول له بهدوء:

- ليس المهم كيف عرفنا، المهم هو:

ماذا ستفعل أنت؟، النية واضحةٌ، والشرُّ واضح كما الشمس.. المدينة السوداء تقع غرب مدينتك (بابل).

صُعق (مهلاييل)، وقد بدأ يربط الأمور ببعضها البعض كيف لم يعلم أن جده الأكبر كان يحذره من إبليس اللعين لأن قلعته السوداء تقع غرب مدينة بابل..

صاح (مهلاييل):

- إذن إبليس سوف يُحرّك جيشه لمحاربتنا..

جاوبه صمتٌ مطبق منهما.. فشعر بغصة في حلقه.. فهو مُقبِلٌ على مواجهة عدو البشر اللدود.. وعدو جده الأزلي.. ومَن تسبب في خروج جده وجدته من الجنة.. لم يستطع أن يقول شيئًا فنهض الحكيم ووقف أمامه وهو يقول:



– قبل أن يموت جدك ولّاك قيادة البشر لأنه توسَّم فيك الخير، والإيمان والشجاعة.. إبليس يظنُّ أن بوفاة جدك ستكون البشرية لقمة سائغة له..

قال (مهلاييل)، وقد بدأ القلق يغزو كلماته:

– هل سيجعل الله الملائكة تُحارب معنا؟

ردَّ عليه الرجل الغريب قائلًا:

– إبليس ضعيف لأنه لا يُقاتل من قلبه مثلما ستفعل أنت.. ما يُحرّكه هو غروره وكبرياؤه اللذان جعلاه يخسر منصبه في السماء من قبل.. حتى ذاثاروس لن يُقاتل من قلبه مثلما كان يفعل من قبل.. هو يعرف أنه لن ينتصر أبدًا.. لكن حب البقاء هو ما يحركه الآن.

غضب (مهلاييل)، وابتعد خطوة إلى الوراء وهو يقول:

– لقد سألت سؤالًا مُحدّدًا أيها الغريب.. هل سيُرسل الله ملائكته لمساعدتنا؟

الغريب:

– لن يُرسل الله أحدًا ليساعدكم.. لقد أدَّى (آدم) عليه السلام رسالته، ووضعكم على أول الطريق، وسلّحكم بالعلم، والمعرفة اللازمة لتتغلبوا على إبليس..



تدخَّل الحكيم في الحديث قائلًا:

– باسم الله سنواجه إبليس، وسننتصر عليه..

كان (مهلاييل) مذهولًا مما يسمعه، وهو يُفكّر كيف سيواجه هذا الكائن، وما مقدار قوته..

انتزعه الرجل الغريب من تفكيره، وهو يقول له:

– استعن بالله، وعُدَّ جيشك جيدًا ليوم اللقاء..

هذا هو أول اختبار حقيقي للبشر.. خلّد اسمك في التاريخ، واهزم إبليس، وقم بنفيه من الأرض.. بعدما تسبَّب جدُّك بنفيه من السماء.

ثم استدار، وخرج من باب الكوخ الصغير بدون حتى أن يهتم بتحيَّتهم فاستدار (مهلاييل) إلى الحكيم، وهو يقول له:

– مَنْ هذا الرجل؟

ابتسم الحكيم، وهو يقول بصوتٍ هادئ:

– جنود ربك كُثُر، وموجودون بكل وقت..

لم يفهم (مهلاييل) قصد الحكيم لكنه استعاد حزمه وطبيعته القيادية، فنادى على أحد الرجال الذين يقفون باستمرار على باب كوخه وهو يقول له بحزمٍ:

– أحضر لي (قونوش) الآن..



ذهب الرجل مُسرعًا ليلبي نداء قائده في حين التفت (مهلاييل) إلى الحكيم، وهو يقول له:

– سنتحصَّن هنا جيدًا.. أؤمر ببقاء النساء، والأطفال والعجائز في ديارهم، وألَّا يخرجوا منها حتى أؤمر أنا بذلك..

أومأ الحكيم برأسه، وخرج لينفذ الأوامر في حين دخل (قونوش) الرجل العملاق على (مهلاييل)، وهو يقول له في احترام شديد:

– ما أوامرك يا قائدي؟

اقترب منه (مهلاييل)، وأمسك كتفيه وهو يقول له:

– اسمعني جيدًا يا قونوش.. سنواجه جيشًا ضخمًا.. جيشًا أسود سيحاول إفناءنا عن بكرة أبينا..

اتسعت عينا (قونوش)، وهو يقول مذعورًا:

– هل قرّر قوم (قابيل) أن يحاربونا؟

ردَّ عليه (مهلاييل):

– لا.. لن يقاتل أبناء العمومة بعضهم البعض الآن، عدونا الآن هو عدونا منذ بدء الخليقة.. منذ أن خلق الله سيدنا (آدم).

ردَّ عليه (قونوش)، وقد ازداد ذُعره قائلًا:

– هل هو.. إبليس؟



مهلاييل:

- أجل..إنه هو ..

قونوش:

- كيف عرفت هذا يا قائدي؟

مهلاييل:

- ليس هذا هو المهم الآن يا (قونوش) سندافع عن مدينتنا، وعن عائلاتنا، ولن نسمح لهذا الشيطان بالانتصار علينا..

انتابت (قونوش) نوبة مفاجئة من الحماسة، فقام بضرب صدره العريض بقبضته الضخمة وهو يقول:

- لن ينتصر علينا الشيطان أبدًا يا قائدي..

قال له (مهلاييل):

- هل الرجال الذين أمرتك بأن تنتقيهم من وسط الحشود جاهزون؟

ردَّ عليه (قونوش) في حماسة:

- أجل يا قائدي، لقد اخترت لك ثلاثةً من أشجع رجال قومِنا..

مهلاييل:

- حسنًا..اذهب، وأحضرهم إليَّ لنُجهِّز أنفسنا..



ضرب (قونوش) صدره مره أخرى ضربتين مُتتاليتين، وكأنه يُحيي قائده وذهب لينفذ أوامره.. في حين قال (مهلاييل) مُحدثًا نفسه بصوتٍ مسمُوع:

– يجب أن نستعدَّ جيدًا.. لنفي إبليس مرةً أخرى، والقضاء على شروره.. إلى الأبد..

***

وقف (إبليس) في منتصف قاعته، وأمامه مِشْعَل أسود اللون يبث نارًا زرقاء.. كان صامتًا مغلق العينين.. يستعيد ذكريات صراعه المرير مع بني البشر.. إلى الآن سجله خالٍ من الهزائم.. وكذلك من الانتصارات.. لم ينتصر عليهم انتصارات ساحقة تجعل بني جنسه يحترمونه أو يهابونه أكثر من ذي قبل.. لكن الفرصة متاحة الآن لأن..

– ما زلت تستغرق وقتًا كثيرًا في التفكير يا عزازيل.

انتفض إبليس، وانطفأ لهيب المشعل الأزرق.. ثم التفت بسرعة إلى مصدر الصوت.. ليجد (ذاثاروس) أمامه..

اندفع (إبليس) نحوه في غضبٍ وهو يقول له:

– هل جُننت؟ كيف تجرؤ على اقتحام خلوتي بهذا الشكل؟ وكيف دخلت إلى قاعتي؟



ضحك (ذاثاروس) بسخرية وهو يقول لـــ(إبليس):

- رويدك يا صديقي الحالي المؤقّت..

اقترب منه إبليس أكثر، وهو يقول له:

- هل تعتقد أنك بأفعالك هذه ستُرهبني؟

ثم أخرج (إبليس) لسانه المشقوق الشبيه بلسان الأفعى، واشتعلت عيناه بلهب أحمر مخيف أرهب حتى (ذاثاروس) نفسه، وهو يقول له بصوت به رنين آلاف الأجراس:

- أستطيع أن أجعلك تختفي تحت الأرض الآن.. بلمح البصر، ولن يستطيع أحد العثور عليك سوى خالقك فقط..

أُخذ (ذاثاروس) من طريقة (إبليس) في التعامل معه.. لكن (ذاثاروس) اكتشف الآن سر هيبة (إبليس)، وقوته..

فقال محاولًا تخفيف حِدَّة الموقف:

- هوِّن عليك.. جئتُ فقط أقول لك إن هناك أكثر من مائة ألف مقاتل من أقوى قبائل الجان تستعد للحرب إلى جانب جيشك ضد البشر..

حافَظَ (إبليس) على جديته، وإن أسعده الخبر الذي أتى به (ذاثاروس) ثم قال له:



- لا عليك..

ثم سار عدة خطوات، وهو يقول لــ(ذاثاروس) بصرامة:

- اتبعني..!

تبعه (ذاثاروس) الذي تعجَّب من قوة شخصية إبليس، وقد تأكّد في هذه اللحظة أن قوة إبليس ليست جسدية أو روحية.. بل هي نفسية.

توقّف (إبليس) فجأة ثم نبتت من الفراغ طاولة حجرية مستديرة عليها رسما توضيحيًا لقلعة (بابل)..

ثم أشار (إبليس) بسبابته ذات المخلب إلى الرسم قائلًا إلى (ذاثاروس):

- لنضع خطتنا للقضاء على هذا الجنس البائد..

ثم ابتسم في شراسة كاشفًا عن أنيابه الحادة الطويلة، وبادلَه (ذاثاروس) نفس الابتسامة.

***



وقف أربعة رجال أمام (مهلاييل) داخل كوخه الصغير، ويبدو عليهم علامات الإنصات الشديد، وعلى صوت (مهلاييل) قائلًا:

- بعد أن أفهمتكم ما نحن مُقبلون عليه.. نحن لا نعرف كم عدد الذين سيهاجموننا، ولا نعرف أسلحتهم.. لكني لديَّ خطة..

ثم أمرهم بالجلوس أرضًا ثم خطَّ بإصبعه على الأرض مربعًا صغيرًا وهو يقول لهم موضحًا:

- تخيّلوا أن تلك هي قلعتنا..

ثم أخذ يُوزِّع نظراته بين الأربعة رجال قائلًا:

- عددُنا تقريبًا عشرون ألف رجل..



سَنُبقي داخل القلعة وعلي أسوارها خمسة آلاف رجل فقط.. مهمتهم الأساسية هي الدفاع عن أسوار القلعة، وصد أي محاولة لاختراقها.

ثم أشار إلى أحد الرجال قائلًا:

– ستقودهم أنت يا (أنيم).

ردَّ عليه (أنيم)، وقد كان أسمر البشرة والعينين، نحيل الجسد، أجعد الشعر، ولكنه فارع الطول جدًّا:

– سأحرص على ألَّا يُدنِّسوا أرض (بابل) طالما ظلَّ قلبي ينبض..

تابع (مهلاييل) قائلًا:

– هكذا بقي خمسة عشر ألف رجلٍ ..

وضع حصاة صغيرة أمام الرسم المبسط للقلعة، وقال:

– هنا خمسة آلاف يكونون تحت قيادتي.. أمام القلعة مباشرة سنحاول إعاقة تقدمهم باتجاه القلعة لأطول فترة ممكنة..

ثم أشار إلى (قونوش) قائلًا له:

– وأنت يا قونوش ستكون بجانبي في القلب..

ثم وضع حصاة واحدة على يمين أول حصى التي تُمثِّل قلب جيشه، وواحدة أخرى على يسارها.. وقال:



- تلك هي أجنحة الجيش..

إليكم الآن الخطة، بمجرد اقتراب جيش العدو من مقدمة الجيش.. سأنسحب باتجاه بوابة القلعة، وسيقوم الجناحان بالابتعاد عن ميدان المعركة، ومُحاولة تطويق جيش العدو من الخلف.. وبينما يطوق الجناحان صفوف الأعداء سأقوم أنا بالاندفاع ناحية جيش العدو ومحاولة اختراق قلب جيشهم ومحاصرتهم، ومن ثم دفعهم إلى الارتداد إلى الخلف ليقعوا في حِصار جناحي جيشنا.

ثم صمت لحظات ليلتقط أنفاسه ثم عاد ليقول:

- هذا كل ما لديَّ..

سأله (قونوش):

- وماذا إذا لم تنجح تلك الخطة؟

ردَّ عليه (مهلاييل) مثبتًا إياه:

- باسم الله وبإذنه لن تفشل..

ثم نهض من مكانه ونهض الأربعة رجال بدورهم احترامًا لقائدهم وهو يقول لهم:

- أوصيكم بالقتال حتى آخر رجلٍ لديكم.. بعد بدء المعركة لا أحد يتلقَّى أوامر مني..كل قائد منكم مسئول عن رجاله، وأود أن



أقول لكم.. أنتم ستدافعون عن عائلاتكم، وأبنائكم وأحفادكم.. فلا تخذلوهم..

جاءهم صوت الحكيم وهو يقول من مدخل الكوخ:

– أنا آسف لمقاطعتكم..لكن هناك شيئًا أودُّ أن أُريكم إياه..

دخل مجموعة من الرجال الأشداء حاملين في أيديهم لفافات كبيرة الحجم من القماش، وضعوها على الأرض ثم انصرفوا، اقتربَ (مهلاييل) من أحد تلك اللفافات، ثم فضَّ واحدة منها وهو يقول للحكيم:

– هل صنعوها مثلما طلبت؟

ردَّ عليه الحكيم وهو يبتسم:

– افحصها بنفسك لتتأكد..

أمسك (مهلاييل) شيئًا من داخل اللفافه وأخرجه أمام الرجال.. كان سيفًا طويلًا ذا نصلٍ حادٍّ وبراقٍ.. دُهِشَ الرجال من ذلك السلاح المصنوع من الحديد فهم لا يألفونه، وبصعوبة قد بدءوا يعتادون استخدام الرماح المصنوعة من الخشب..

وقف (مهلاييل) وهو يقول:

– أعلم أنكم لم تستخدموا سيوفًا من خشب قط.. لكن صدقوني هذا هو الوقت المناسب لاستخدامها..



ثم صاح بهم بلهجة قيادية:

- هل أنتم مستعدون؟

ردّوا عليه جميعًا في نفس الوقت، وبصوتٍ تملؤه الحماسة:

- مستعدون!

أمسك (مهلاييل) سيفه بقوة ورفعه أمام وجهه وهو يقول:

- لنحارب الشَّرَّ للمرة الأولى..

ثم صمت لحظات، وعاد ليقول:

- ولنحاول أن نجعلها المرة الأخيرة..

***



وقف (مهلاييل) على أسوار مدينة (بابل) يتطلع باتجاه الغرب..

كان قد أمر بإرسال مجموعة من الرجال في اتجاه الغرب.. حتى يستطيعوا تحذير المُدافعين عن القلعة إذا اقترب جيش العدو.. أرسلهم الليلة الماضية ولم يعد أحد منهم إلى الآن.. كانوا عشرة رجال من أقوى رجاله وأشدهم بأسًا.. كانت السماء زرقاء صافية، وخيوط الشمس الذهبية تُعانِق حشائش الأرض الخضراء فتكسبها لمعانًا ونضارة محببة للنفس..

أخرجه صوت الحكيم العجوز من حالة الشرود التي اجتاحته وهو يقول:

- ألم يعد الرجال بعد؟



مهلاييل:

- لا ما زلتُ أنتظر عودتهم..

ثم صمت لحظات ليستطرد:

- أو عودة بعضهم على الأقل..

لفَّهُم الصمت لحظاتٍ ثم قال الحكيم فجأة:

- الحلم؟

وهو ينظر إلى السماء في حيرة.. ما قاله لفت انتباه (مهلاييل) أيضًا، فنظر إلى السماء بدوره ليجد ما يجعل الذهول يكتنفه، فالسماء التي كانت صافية منذ لحظات بدأ يتجمع فيها سُحب رمادية اللون تبعث على الكآبة.. ظهرت هذه السحب فجأة من العدم..

لم يجد (مهلاييل) ما يقوله في حين تمتم الحكيم بكلمات هامسة:

- رُحماك يا إلهي!

انتفض (مهلاييل) فجأةً، وهو يُشير بيده إلى شيء ما ثم انتزع نفسه من مكانه، وهبط الأدراج الخشبية التي تؤدي إلى أسفل الأسوار بسرعة رهيبة حتى استقر على الأرض، وهو يقول لمجموعة من الرجال المسئولين عن تأمين البوابة الكبيرة بلهجةٍ آمرة:

- افتحوا البوابة..



أزال الرجال الأخشاب التي وضعوها لتدعيم البوابة وتعاونوا جميعًا على فتح البوابة ثقيلة الحجم.. لم ينتظر (مهلاييل) حتى اكتمال فتح البوابة، بل خرج منها قبل أن تفتح بالكامل.. هنا عرف الحكيم ما جعل (مهلاييل) يُهرول بهذه الطريقة.. حيث إن الرجال الذين قد أرسلهم لاستطلاع حدود مدينتهم الغربية قد عادوا، وهم يركضون، ويلتفتون خلفهم في ذعر رهيب..

لم تقوَ ساقاي الحكيم على التحرُك.. فجلس يراقب ركض (مهلاييل) ليقابل رجاله في منتصف المسافة بينهم وبين القلعة..

كان (مهلاييل) يركض باتجاه رجاله الذين كانوا مذعورين بحق حتى التقى بعضهم ببعض، فأمسك (مهلاييل) كتفي قائدهم، وهو يقول له بلهفة:

– ماذا هناك؟ ماذا رأيتم؟

أخذ الرجل يلهث كمن لم يتوقف عن الركض ليومين كاملين وهو يقول بصوت متقطع من أثر اللُهاث:

– إنهم كثيرون يا سيدي؟

أمسك (مهلاييل) بتلابيب الرجل وهو يقول له:

– تكلّم بوضوح أكثر؟

ردَّ عليه أحد الرجال قائلًا:



- جيش (إبليس) يا سيدي.. تعدادهم يفوق الثلاثمائة ألف مقاتل..

أضاف آخر بصوت مرتجف:

- ولديهم أشياء غريبة لم نرها من قبل، ومعهم العديد من مردة، وغيلان الجان أيضًا يا سيدي..

قال (مهلاييل) بسرعةٍ مُحاولًا تقدير الموقف:

- حسنًا كم يبعدون عنا الآن؟

نظر الرجال إلى بعضهم البعض، وقال قائدهم بصوت مرتجف:

- لن تغرب الشمس إلا وتكون طلائع جيشهم في مرمى بصرنا يا سيدي..

حاول (مهلاييل) أن يتمالك نفسه، فلن يقوى الرجال على القتال إذا رأوا قائدهم غير متماسك وقال بصوت حازمٍ:

- حسنًا، اذهب إلى القلعة، وأخبر قونوش، والحكيم أن الأعداء سيصلون قريبًا.. اجعل قونوش يستعد، وليخرج بالجنود الآن.. أسرعوا

ركض الرجال بأقصى ما لديهم من قوة، وسرعة ليخبروا بقية من في المدينة بخبر اقتراب جيش الأعداء، وكذلك لإبلاغ أوامر (مهلاييل) الجديدة..



أما (مهلاييل) فقد وقف لينظر إلى أرض المعركة ويجول بعينه سريعًا، وسط الأرض.. ثم نظر إلى السماء ليري أن الشمس قد حُجبت تمامًا وراء تلك الغيوم الرمادية، وهطلت أول قطرات الغيث!

***



أسقط عبد القادر البردية من يده بعدما سمع صوت صراخ ابنه محمد، وهرع صاعدًا إلى الأعلى، وتبعه زكريا بدون أن يتكلم..

وصل إلى حيث غرفة ابنه محمد ليفتح بابها وهو ينتفض وتتسع عيناه هولًا ورعبًا مما يرى.. كان محمد يرقد على فِراشه عاريًا تمامًا، وجسده يلمع نتيجة العرق الغزير الغارق فيه، وتتشنّج أطرافه، وتصطك أسنانه بعضها ببعض، وتسيل رغوة بيضاء من جانبي فمه..

عيناه جاحظتان، ورئتاه تجاهدان لالتقاط بعض الهواء، وكأن لا وجود سوى لثاني أكسيد الكربون في محيطه..

حاول الأب الاقتراب من ابنه لكن يد زكريا الصارمة أمسكت به فمنعته.. ليقترب زكريا من فِراش محمد، والأخير يزداد تشنُّجه.. وضع كفَّه على رأس محمد، وبدأ يتلو آيات من القرآن ليزداد تشنُّج



الأخير، وأصبح هناك صوتُ حشرجةٍ مُخيفة يأتي من صدره، وكأنه يحتضر.. ثم هدأ مرة واحدة..

نظر زكريا إلى عبد القادر، والعرق يغمر وجوههم ثم اتسعت عينا زكريا رعبًا عندما تكلم محمد قائلًا جملة واحدة فقط:

- سيدي جه..سيدي جه..سيدي جه..

ثم أغلق عيناه، وراح في سُبات عميق..

لينظر زكريا إلى عبد القادر مرة أخرى، وفي عقولهم تُدوِّي فكرة واحدة.. لقد فتحوا بوابات الجحيم بفتحهم لتلك المقبرة..

الجحيم الذي سيلتهمهم..وحدهم.

***



تراصَّت حشود أول جيش بشري في التاريخ.. عشرون ألف مقاتل يدافعون عن أول مدينة بشرية في تاريخ الإنسان.. تراصَّت الحشود علي شكل ثلاث فرق، كل فرقة قوامها خمسة آلاف مقاتل كما خطط (مهلاييل) تمامًا للأمر..

استمرت السماء بإفراغ ما بجوفها على رؤوس البشر.. كان (مهلاييل) في قلب الجيش تمامًا.. كانت الشمس قد غربت، وهو يعلم أنه في أي لحظة سيكون جيش إبليس على مرأى ومسمع منهم.. كان يقف قونوش بجانبه فسأله وقد تجلّى الخوف في صوته وفي ملامحه:

– سننتصر يا سيدي، أليس كذلك؟

نظر له مهلاييل ثم نظر إلى السماء وهو يقول له:

– لن يتخلّى الله عنا.. ثِق بخالقك يا رجل، لن يتركك لتموت على يد أعدائه..



تناهى إلى مسامعهم صوتٌ غريب.. كان صوت بوق جيش الجان.. كان الجان من عادت جيوشهم أنهم إذا وصلوا إلى أرض المعركة يقوم نفرٌ منهم بنفخ الأبواق حتى يعلم الجميع بوصولهم..

كان الصوت غريبًا على أذان البشر.. بدأ ضوء البرق يسطع في السماء، وبدأت الأرض بالاهتزاز من تحت أقدامهم، بدأت الحشود البشرية في التخبط، والتراجع في حين صاح مهلاييل بأعلى صوتٍ لديه:

– لا تبرحوا أماكنكم.. ولا تتراجعوا..

لم يُفلح صوته حتى في طمأنته، ولكنه ظل متمسكًا بمقبض سيفه بقوة، وظهرت أول طلائع جيش (إبليس).. كائنات فارعة الطول تحمل رماحًا طولها يعادل ضعف طول أطول رجل في الجيش البشري، وكان يتقدَّمُهم إبليس، كان يركب دابة ذات قرنٍ واحدٍ في مقدمة رأسها، ولديها عيون مشتعلة مثله وأنياب بارزة، ولونها أسود.. كانوا يرتدون جميعًا أزياء فضية لامعة وحرملات سوداء عدا إبليس الذي كان مرتديًا حرملته الحمراء..

تراصَّت جيوش إبليس على مدى بصر البشر.. عمَّ الكون كله الصمت احترامًا لهذة اللحظة التاريخية.. فلأول مرة يلتقي الشَّرُّ، والخير وجهًا لوجه في معركةٍ حقيقيةٍ.. لا فاصل فيها سوى حد السيف، والدماء..



هنا صرخ مهلابيل بكل ما يعتمل بداخله من مشاعر:

- لن أطلب منكم الانتصار، ولكني أطلب من كل رجلٍ هنا.. أن يصمد مدافعًا عن أسوار تلك المدينة.. تلك المدينة التي تحوي الآن عائلاتكم، وأبناءكم.. فإذا سقطتم الآن.. ستسقط تلك المدينة، وسُيقتل أبناؤكم وزوجاتكم وكل أحبائكم، ومَن يبقى منهم على قيد الحياة.. سيكون طعامًا للشياطين..

بدأت طلائع جيش إبليس بالتقدُّم ببطء نحوهم، وعاد مهلابيل ليقول محاولًا بث الحماسة في قلوب رجاله:

- بحد السيف.. سنعرف أعداءنا أننا لسنا لقمة سائغة.. لن ينتصر علينا الشيطان..

تعالت أصوات صياح جنود جيشه، في حين بدأت سرعة تقدم جنود إبليس تزداد.. حتى أصبح جُل جيش إبليس يركض باتجاه الجيش البشري.. سُحقت الحشائش تحت أقدام المهاجمين بعد أن بلّلها ماء المطر، وأصبح المدافعون لا يرون سوى صور أحبائهم.. وأصوات قطرات المطر تصمُّ أذانهم.. صاح (مهلابيل):

- استعدوا..

فقام رجاله بتوجيه رؤوس حِرابهم المُدبَّبة في وجه الجيش المُتقدِّم نحوهم.. لم تُرهبهم بشاعة وجوه الجيش الإبليسي، ولم تُزعجهم



أصواتهم الشبيهة بنُباح الكلاب المصحوب برنين الأجراس.. لم تنل منهم عيون الشياطين الحمراء التي أصبحت كجمرات من الجحيم آتية لانتزاع أرواحهم من حلوقهم..كان يُرهبهم مدى الحقد، ورائحة الكراهية المنبعثة من جيش عدوهم..

أصبح جيش إبليس على بُعد عشرات الأمتار منهم فقط.. ثم فجأة انقسمت الحشود المنطلقة نحوهم إلى قسمين، واندفع من بين القسمين جيشٌ آخر، وكان من بينهم (ذاثاروس) الذي كان يحمل سيفًا طويلًا مستطيل الشكل، وكان يرتدي لباس الحرب الخاص بقبيلته الأحمر اللون بالكامل، وخلفه فرسانه.. كانوا يمتطون جيادًا برية حمراء اللون لها قرنان صغيران في مقدمة رأسها وأعينها بيضاء لها بريق مرعب..

قيّدت المفاجأة جنود الجيش البشري، فلم يتحركوا من أماكنهم، وذاثاروس وفرسانه يقتحمون مقدمة الجيش البشري وقلبه..

تفادى مهلاييل بصعوبة ضربة سيف كانت موجّهة نحوه من أحد فرسان الجان الذي مَرَّ من جانبه خلف ذاثاروس.. فقام مهلاييل بالتقاط رمح أحد جنوده الصرعى وصوَّبه إلى هذا الفارس، ثم طوَّحه بأقصى ما لديه من قوة فاخترق الرمح ظهر الفارس وأرداه قتيلًا.. أصبح جيش مهلاييل مُختَرقًا..

كان جيش الأبالسة قد توقَّف عن الحركة على بُعد عدة أمتار تاركًا مهمة اختراق الجيش البشري لذاثاروس وفرسانه.. كانت رحى



المعركة دائرة فرسان ذاثاروس يحاولون الوصول إلى بوابة القلعة في حين يحاول البشر صدهم، وفي وسط صخب المعركة صرخ إيلاي بإبليس قائلًا له:

– إنها فرصتنا لنقوم بتطويقهم الآن لن يستطيعوا صدنا، صفوفهم ممزقة..

زمجر إبليس قائلًا:

– دع ذاثاروس وفرسانه يلحقون بهم أكبر قدر من الضرر، وبعدها سننقضُ عليهم..

كان إبليس بقواته يمثل احتياطيًّا إستراتيجيًّا لقوات ذاثاروس المهاجمة.. لم يُعجب مينوخ بكلام إبليس فصرخ هو أيضًا حتى يستطيع إبليس سماعه:

– لأول مرة أتفق مع القائد إيلاي في شيء يا سيدي يجب أن نهاجم الآن..

ردَّ عليه إبليس في غطرسة:

– قلت لا.. إنهم لن يستطيعوا الصمود لدقائق حتى.. بعد أن ينهكهم ذاثاروس سنقوم بالانقضاض عليهم..

وعاد لمتابعة المعركة.. كانت خطة إبليس أن يقوم ذاثاروس باقتحام مقدمة الجيش البشري، والبقاء داخل الجيش لأطول فترة



ممكنة لإلحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر في صفوف البشر، وبعدها يتدخل إبليس بقواته لينهي المعركة تمامًا..

بدأت قوات ذاثاروس بالتقدم بثقلها باتجاه البوابة فعلم مهلاييل بنيَّتِهم فصرخ في رجاله قائلًا:

– إنهم يحاولون الوصول إلى البوابة..

كان فرسان ذاثاروس لا يحاولون الاشتباك مع جنود البشر بقدر ما كانوا يريدون المرور من تلك الصفوف البشرية للاتجاه إلى البوابة..

أمسك مهلاييل مقبض سيفه، وأخذ يُطوِّحُه يمينًا ويسارًا محاولًا إسقاط أكبر عدد ممكن من رجال ذاثاروس.. لكن عددهم كان كبيرًا جدًّا.. فنجح بعضهم في الوصول إلى بوابة القلعة، وبدأ قسم منهم يحاولون تكسير البوابة واقتحامها، والقسم الآخر يحاول أن يتسلق الجدران..

كان (أنيم) المسئول عن الدفاع عن أسوار القلعة يراقب المعركة التي لا تسير في صالح بني جنسه بمرارةٍ وعجزٍ هائل.. لكنه كان قد عرف أن ذاثاروس لا ينوي القتال لكنه ينوي أن تفتح بوابة القلعة.

وعندما بدأ فرسان الجان في الوصول إلى أسوار القلعة صاح في رجاله بقوة:

– لينزل عددٌ منكم إلى الأسفل لتدعيم البوابات..



ثم أشار إلى رجلٍ كان بجواره قائلًا له:

- الآن. اهجموا..

نقل الرجل أوامر قائده إلى المدافعين عن الأسوار فبدأ سيل من الصخور تنهال على رؤوس فرسان ذاثاروس، وبدأت الرماح تشق طريقها إلى صدور فرسانه..كان ذاثاروس يرى فرسانه، وهم يسقطون صرعى.. كان خبيرًا في حروب القِلاع، ويعرف أن الأفضلية دائمًا للمدافعين.. فصرخ في رجاله يستحثهم على الإسراع:

- هيا يا فرسان.. إلى البوابة.. لنسقط تلك المدينة..

ثم أخذ يتفادى ضربات جنود البشر، وهو يوجِّه لهم أضعاف ضرباتهم، كان قويًّا بحقٍّ، نجح في شق طريقه هو، وأغلب فرسانه باتجاه البوابة وكان يتبادل الرشق بالرماح بينه وبين المدافعين..

أُسْقِطَ في يد مهلابيل لا يعرف ماذا يفعل، فهو مُحاصَر من قبل جيشين.. صرع أحد فرسان ذاثاروس الباقين داخل صفوف جيشه بنصل سيفه ثم قال لـــ(قونوش):

- قُدِ الجناح الأيمن فقد سقط قائده، وارتد للخلف، وقم بهجوم مضاد على الفرسان الذين يهاجمون القلعة، واجعل الجناح الأيسر خلفك تمامًا..

ظل إبليس يرمق ما يحدث في أرض المعركة غير مصدقٍ ما يحدث، وإيلاي يقول له في غضبٍ:

– لقد خالف هذا المارد أوامرك يا سيدي.. تلك لم تكن الخطة المُتفق عليها.. لماذا يهاجم القلعة، ويترك جيش مهلاييل؟! سيتسبب في مقتلنا جميعًا..

صرخ إبليس في صوت هادر:

– سأقتل هذا اللعين بعد أن أفرغ من البشر، أُقسِمُ بروحي أن أفعل هذا..

ثم استدار قائلًا إلى إيلاي:

– استعدوا للهجوم..

صاح إيلاي في جنوده قائلًا:

– هجوم شامل..

في نفس التوقيت كان عدد كبير من فرسان ذاثاروس قد نجحوا في تسلُّق أسوار بابل وأصبحوا داخلها فعليًّا، ونجح ذاثاروس في إحداث فجوة كبيرة نسبيًّا في الجدار الغربي للقلعة، ونفذ إليها هو وعدد كبير من جنوده، وبمجرد أن وجد (أنيم) أن الجدار قد تم اختراقه استلَّ سيفه وهو يقول لنفسه:



- لقد عاهدتُ مهلاييل أنه لن تسقط جدران تلك القلعة ما دمتُ حيًّا..

ونزل من الأسوار مُندفعًا ليُواجهِ المهاجمين الذين فوجئوا من انتظار البشر لهم خلف الجدران.. فتلاحم الفريقان، وتعالى صليل السيوف.. كان المدافعون يقاتلون بشراسة سقط العديد منهم لكنهم قد نجحوا في إبطاء تقدُّم المهاجمين.. ثم التقى أنيم وذاثاروس.. عرف أنيم أن هذا هو قائد المهاجمين.. فالتقط رمحه ثم رماه باتجاه رأس ذاثاروس الذي ضرب الرمح بسيفه فكسره بسهولة.. فصرخ أنيم غاضبًا، واندفع بسيفه مهاجمًا إياه.. تلاقى السيفان معًا.. لم تتحمل عضلات أنيم قوة ضربة سيف ذاثاروس فأحسَّ أنيم بآلام فظيعة تجتاح عضلات ذراعيه.. ثم تفادى ضربة أخرى من سيف ذاثاروس كانت تهدف رقبته، وتراجعَ إلى الخلف عدة خطوات، ثم استجمع شجاعته وانقضَّ مرة أخرى على ذاثاروس الذي مال جانبًا، وهو يوجه نصل سيفه إلى عُنق أنيم فاحتكَّ طرفُ النصل برقبة الأخير الذي سقط أرضًا وهو يمسك عنقه والدماء تسيل منه بعد أن نجح نصل سيف ذاثاروس الحادُّ في جرح عُنقه جرحًا بسيطًا فلم تكن ضربة قاتلة بقدر ما كانت مؤلمة..

نهض أنيم مرة أخرى من سقطته بصعوبة فتعجَّب ذاثاروس من شجاعة هذا الكائن فقال ذاثروس له:



- أنت شجاع حقًا أيها البشري، ولكنك أخطأت بالوقوف أمامي..

أدهشه أن أنيم رفع سيفه مرةً أخرى، وانقضَّ عليه لمرة أخيرة.. فقام ذاثاروس بحمل سيفه، والانقضاض أيضًا على أنيم..

ثم طوَّح ذاثاروس سيفه ليقطع رأس أنيم لكن هذا الأخير انحنى فجأة ثم وجَّه طعنة إلى ساق ذاثاروس الذي اتسعَت عيناه دهشةً، وليس ألمًا عندما اخترق سيف البشري قدمه فصرخ غاضبًا وقد بدأ يسيل من قدمه سائل أسود لزج.. فقام بضرب أنيم بمقبض سيفه على ظهره فسقط الأخير على الأرض لا يقوى على الحراك..

***

كان جيش إبليس ينهب الأرض نهبًا باتجاه القلعة، وكان مهلاييل يجاهد لجمع شتات قواته وتنظيم صفوفها لصد الهجوم.. كان القتال مُشتعلًا خلف مهلاييل بين المدافعين عن القلعة، وجناحي جيشه من جانب، وبين فرسان ذاثاروس من جانب آخر.. كان يتحرّق للعودة إلى قلعته والدفاع عنها.. لكن رأس الأفعى ما زالت هنا فيجب أن يقطعها.. كان إبليس يتوقع أنه سيواجه مقاومة بسيطة نظرًا للتمزق الذي أصاب قلب جيش مهلاييل على يد ذاثاروس، ولكنه بمجرد أن التحمت القوتان عرف أن البشر استعادوا سيطرتهم سريعًا على أنفسهم..



كان يحيط بإبليس عشرة مقاتلين بدروع سوداء اللون لا يسمحون لأي بشري بالاقتراب منه.. وجد إبليس مهلاييل، وعَلِمَ من هو منذ اللحظة الأولى، لقد اشتمَّ فيه رائحة جده (آدم) فصرخ بإيلاي قائلًا:

– أريد رأسه..

نزل إيلاي من فوق صهوة مطيته، واستلَّ سيفه، واندفع باتجاه مهلاييل الذي تهيَّأ لصد هجوم إيلاي.. فاستقبل نصل سيف إيلاي على وسط سيفه ثم طوَّحه بعيدًا، وحاول طعن إيلاي في صدره، لكن الأخير تراجع إلى الخلف متفاديًا الطعنة، وهو يُزمجر قائلًا:

– يبدو أنك مقاتل جيد أيها البشري، ولكنك لن تصمد أمامي.

ثم اندفع مرة أخرى باتجاه مهلاييل مُطوِّحًا سيفه باتجاه قدميه فقفز الأخير متفاديًا سيف إيلاي ثم سقط أرضًا، وتدحرج مسافة قليلة إلى الخلف، لكنه انتصب مرة أخرى سريعًا شاهرًا سيفه مندفعًا نحو إيلاي الذي أخذته الصدمة، ولم يُفِقْ إلا وسيف مهلاييل مخترق عُنقه حتى منتصفه.. سقط إيلاي على ركبتيه، وصرخ إبليس بسبب سقوط قائدهو وهدأ ضجيج المعركة.. لقد قُتل قائد جيش إبليس على يد فانٍ.. رغم أن العديد منهم قد سقط على أيدي البشر لكن سقوط مقاتل كـــ(إيلاي) له وَقْعٌ مختلف تمامًا.. لقد أحسَّ الشياطين فجأة أنهم يموتون، وجثثهم تحترق من تلقاء نفسها في أرض المعركة..



صرخ إبليس في مينوخ بلهجه آمرة قائلًا:

– ماذا تنتظر أنت، وجنودك.. اقضِ عليهم..

اندفع مينوخ باتجاه مهلاييل الذي أمسك سيفه ثم رماه باتجاه مينوخ فحطَّم درعه واخترق صدره.. اتسعت عينا مينوخ ألمًا في حين التقط مهلاييل رمحًا وانقض على مينوخ الساقط أرضًا وهو يطعنه مرة أخرى في صدره.. تخبطّت صفوف الجيش الإبليسي بعد سقوط قادهم، وبدءوا في التراجُع إلى الخلف بدون انتظام.. تحمَّس البشر عندما رأوا أن الجيش الأقوى والأكبر عددًا وعتادًا يتراجع أمامهم فحملوا عليهم حملة أخيرة.. تسببت في أن ينسحب إبليس وجيشه القهقرى.. انسحب إبليس تاركًا بعضًا من قواته تغطي انسحابه، والتفت مهلاييل خلفه باتجاه قلعته.. كان يأمل أنها لم تسقط بعد.. أخرج سيفه من جسد مينوخ المحترق وهو يصرخ بجنوده:

– إلى بابل..

صاح الجنود في حماسة واندفعوا خلف قائدهم لينقذوا قلعتهم من السقوط..

***



(إمحوتب)..

ذلك الرجل الغامض في التاريخ الفرعوني.. ليست لديه وظيفة محددة أو عمل محدد.. لكن كان لديه العديد من الألقاب.. الباحث، المهندس، الطبيب، الفلكي، الكيميائي، السياسي، الكاتب.. هو من بنى هرم زوسر المُدرَّج.. بل هو أول مَنْ أدخل النظام المتدرج في بناء الأهرامات بدلًا من الأبنية القديمة المُكوَّنة من الحجارة والأخشاب.. ذُهِلَ الكهنة من براعته في علاج الأمراض وتشخيصها، عالَجَ وشخَّص أكثر من عشرين مرضًا، وكذلك كان خبيرًا في علم التحنيط الذي كان مقصورًا على الكهنة فقط، وأيضًا علم التشريح.. كان يُراقِبُ النجوم دائمًا، ويستخلص العقاقير الطبية من النباتات



والأزهار والأعشاب.. تدرَّج في الوظائف الرسمية حتى أصبح كبير الوزراء في القصر الملكي..

تمر السنون ليصبح في وقتٍ من الأوقات الرجل الثاني مباشرة بعد الملك.. اعتبره الرومان والإغريق أبا الطِّبِّ.. حتى عبدوه في وقت من الأوقات، وتم اعتباره إله الطب والحكمة..

ليست تلك المشكلة.. المشكلة أن إمحوتب اختفى تمامًا، ومُحيت كل آثاره من التاريخ الفرعوني، ولم يذكر عنه أي شيء باستثناء بعض المعلومات البسيطة عنه وعن قُدراته.. حتى مقبرته لم يتم العثور عليها حتى الآن، وكأن الرجل لم يكن.. أو سقط سهوًا من كتاب التاريخ.

اختفى فجأة كما ظهر فجأة.. حتى معنى اسمه في الهيروغليفية يبعث على التعجُّب، والدهشة.. فمعنى اسم إمحوتب في الهيروغليفية القديمة هو (الذي جاء بسلام) فمن أين جاء؟ وأين رحلَ؟

***



انسحب إبليس بجيشه حتى التل الواقع أمام بابل، وهو يقول لجنوده:

- أتنسحبون أمامهم أيها الجبناء.. ألا تقدرون على قتالهم؟!

لم يصدر منهم أي صوت فقال لهم:

- أنتم أكثر عددًا منهم تستطيعون القضاء عليهم بسهولة، لماذا تراجعتُم؟

أخذ إبليس يدور حول نفسه، وهو ينفث غضبه ثم حانت منه التفاتة نحو السماء الممطرة، وخُيِّلَ إليه أنه يلمح ابتسامة ساخرة..

ابتسامة آدم!

***



كانت المعركة أسفل أسوار بابل متكافئة إلى حدٍّ ما، وكان قونوش يبلي بلاءً حسنًا في قيادة الرجال، ولم يستطع ذاثاروس أن يُناور بقواته لضيق المكان فاضطرَّ لخوض معركة هجوم ودفاع ضيق.. كان قد سقط العديد من رجاله، وقد سقطَ العديدُ أيضًا من البشر، كان يأمل أن تنهار مقاومتهم الشرسة له لكن هيهات.. سمع صياح بين أفراد جيش البشر أن مهلاييل انتصر بالخارج وهو آتٍ إلى القلعة..

صُعِقَ ذاثاروس مما سمعه، والتفت خلفه.. لم يشعر أنه قد تقدَّم إلى داخل المدينة مسافة جيدة، لكنه لم ينتبه إلى هذا بسبب شدة القتال الدائر.. ثم فوجيء بمهلاييل يتقدَّم نحوه مخترقًا صفوف فرسانه.. كانت معنويات البشر مرتفعة في حين أن الجان يقاتلون، ويقاتلون فقط لا يتعبون لا ييأسون..كان فرسان الجان يقاتلون بصفوف.. إذا سقط أحد من أول صَفٍّ يقوم فارس من ثاني صفٍّ بأخذ مكان المقاتل الذي



أمامه لسد الثغرة في الصف الأمامي وهكذا.. فكانت صفوفهم الأمامية لا تتشتت أبدًا.. لكنهم فوجئوا بهجوم ضارٍ عليهم من الخلف.. المساحة ضيقة ورماح البشر طويلة..

بدأ فرسان ذاثاروس في السقوط واحدًا تلو الآخر.. حتى أصدر ذاثاروس أوامره بالانسحاب خارج أسوار المدينة، وارتد إلى الخلف محاولًا فكَّ الحصار عن قواته.. ظل يقاتل، ويقاتل يطعن هذا ويضرب ذاك.. يُطوِّح سيفه هنا ويتفادى ضربةً من هناك.. حتى وجد نفسه محاصَرًا بالبشر من كل الاتجاهات.. لم يَخَفْ أو يتراجع بل قال في صوت قويٍّ:

– لقد خُضتُ مئات المعارك من قبل، ولا أعتقد أن نهايتي ستكون على أيديكم أنتم اليوم..

ثم ضحك ساخرًا:

– أعتقد أنني لستُ في مزاج مناسب اليوم للموت..

كان هناك عددٌ من فرسانه حوله كان لا يتعدون أصابع اليد الواحدة.. ضرب ذاثاروس أقرب الرجال إليه مُحاوِلًا شقَّ طريقه خارجًا من بابل، وكذلك فعل فرسانه، ولكن البشر كانوا بالمئات يحاصرونهم في تلك المنطقة الضيقة، وتوالى سقوط فرسان ذاثاورس حتى بقيَ هو وحده.. فنظرَ إلى جموع البشر المتحفزة من حوله ثم صرخ صرخةً عظيمةً سمعها كل مَنْ بالأرض وخرجت أجنحته من



ظهره ضاربة عددًا من الرجال بقوة، وحاول التحليق طائرًا للهروب من حصارهم.. كان قد أُصيب بمئات الجروح، ولكن كبرياءه كانت ترفض أن يسقط أمام البشر..نجح في الارتفاع عن الأرض لعدة أمتار، ورماح البشر تطارده..

إلى أن اندفع مهلاييل فجأة من وسط الجموع مخترقًا إياها، ثم قفز قفزة طويلةً متعلقًا بقدمي ذاثاروس الذي أخذته المفاجأة.. فحاول أن يطعن مهلاييل بسيفه لكن مهلاييل كان الأسرع فأخذ يضرب جسد ذاثاروس بسيفه مثخنًا إياه بالجراح..

حذا قونش حذو قائده، وقفز هو الآخر ليتعلق بذاثاروس الذي لم تحتمل أجنحته الوزن المفاجئ فسقط أرضًا هو ومهلاييل وقونوش، وطار سيفه بعيدًا عنه.. حاول النهوض من سقطته، لكنه فوجيء بعشرات الرماح والسيوف المصوَّبة إلى جسده.. فرفع رأسه قليلًا لكنه عاد، وأنزلها مرة أخرى مريحًا إياها على الأرض، وقد بدأ جسده بنزف ذلك السائل الأسود اللزج..

اقترب منه مهلاييل وقال له:

– يمكنني الآن أن أمنحك موتًا شريفًا كمقاتلٍ مات وهو يحارب.. لكني سأحرمك من هذا الشرف الذي لا تستحقه، وسيُطبَّق عليك الحكم الإلهي الذي حُكم عليك من قبل.. ألا وهو النفي في مجاهل الأرض إلى الأبد..



ثم التفت إلى قونوش قائلًا له بصرامة:

- اتركه في حراسة مائة رجل من أقوى رجالك.

ثم ارتفعت نبرة صوته ليتأكد أن جميع من حوله يسمعونه وقال:

- وإذا حاول الهرب أو حتى التحرُّك مزقوا جسده..

ثم استطرد قائلًا:

- اتبعني إلى الخارج..

أشار قونوش إلى أحد رجاله الذي تقدَّم، وتقدَّم معه الكثير من الرجال، والتفوا حول ذاثاروس في دائرة محكمة ليمنعوه من الهرب، وهم يوجهون له سيفوهم ورماحهم..

كان الفجر قد أوشكَ على الانبلاج، وهدأت حِدة الأمطار حتى كادت تتوقَّف، ونظر مهلاييل إلى قونوش قائلًا له، وهو يشير بسبباته إلى التل:

- إبليس وجيشه هناك.. لم ينسحبوا.

رد عليه قونوش:

- وبِمَ تأمر؟

مهلاييل:

- جهِّز صفوفنا مرة أخرى سنهجم نحن عليه قبل أن يهجم علينا..



وصلت أخبار هزيمة ذاثاروس إلى إبليس عن طريق فلول فرسانه الهاربين من حصار بابل..فصُعق الأخير وهو ينظر إلى السماء قائلًا:

– لن أُهزم أبدًا..

ثم التفت إلى أحد مقاتلي الجان قائلًا له:

– لقد سقط قائدك، وستتولّى أنت قيادة فرسانه في هذه المعركة..

لم يُعقّب المقاتل الواقف أمامه في حين التفت إبليس إلى أحد أعوانه قائلًا له:

– استعد سنقوم باختراق القلعة الآن..

كانت الشمس قد أشرقت، وهال الفريقين ما يشاهدونه في أرض المعركة، آلاف من جثث الشياطين محترقة، ومثلها من جثث الجان كاملة لم تُمس، ومثلها أيضًا من جثث البشر.. كان الأمر غريبًا للبشر لكن الشياطين والجان رأوا هذا المشهد مئات المرات من قبل.. كان جيش مهلاييل بأكمله خارج القلعة، وقد نُظمت صفوفه للمرة الأخيرة، وكذلك جيش إبليس الذي تخلّى عن مطيته، وأصبح في مقدمة الجيش بدون حراسة.. بقيَ الجمعان ينظران إلى بعضهم البعض في صمت.. إلى أن أصدر مهلاييل أمره بالهجوم.. تضايَقَ إبليس أن مهلاييل قد سبقَه في إصدار الأمر بالهجوم، ولكنه تخطّى هذا الأمر مؤقتًا، وهو يصيح بجشيه قائلًا:

– هجـــــــــوم!



ركض الفريقان إلى نقطة اصطدامهما ببعضهما البعض، لكنهم توقفوا فجأة عندما سمعوا صراخًا وصياحًا يأتيان من الشرق..

نظر مهلاييل، وجنود البشر وقد ظنوا أن هناك مددًا قد جاء لجيش إبليس.. أما إبليس فقد نظر مذهولًا باتجاه الشرق عندما رأى تلك الجحافل البشرية التي تتقدّم نحوهم.. أكثر من عشرة آلاف رجل يحملون هراوات ثقيلة.. ثم بدأت تنطلق من اتجاههم رماح صغيرة الحجم باتجاه جيش إبليس.. سقط العديد من الشياطين نتيجة تلك الرماح الصغيرة، ولم ينتظر مهلاييل، واقتحم صفوف جيش إبليس الذي فوجئ بهجومين في نفس التوقيت واحدًا من أمامه وقد كان مستعدًا له أمّا الآخر فقد أتى من الشرق.. بدأت الجحافل البشرية الآتية من الشرق باقتحام صفوف الشياطين وتمزيقها تمامًا.. لم يتمالك إبليس نفسه فطعن أقرب جنود البشر إليه، وأطاح برأس آخر، ومزّق جسد ثالث، وأخرج قلب رابع حتى وجد أمامه مهلاييل.. شعر أن آدم هو من يقف أمامه، وليس حفيده.. نظرا كلٌّ إلى الآخر مُطوَّلًا ، كانا يتبادلان حديثًا خفيًّا عن طريق الأعين فقط بدون أن تتحرك الشفاه.. كانت عين إبليس تقول:

– لقد سقطت مرة أخرى أمام تلك المخلوقات المفضلة لدى الخالق.



بينما عين مهلاييل تقول بظفر واضح:

– لقد فعلتها كما فعلها جدي من قبل، ونجحتُ في التغلب عليك.

هدأ ضجيج المعركة، وهدأت حِدة القتال حتى توقّفت تمامًا، والجميع بلا استثناء ينظرون إلى الحوار الصامت بين مهلاييل، وإبليس.. حتى كسرَ إبليس حاجز الصمت، وهو يقول لمهلاييل:

– لقد انتصرتَ في هذه الجولة..

ثم أنزل سيفه..

قال له مهلاييل:

– تلك لم تكُ جولةً.. هيا انظر حولك. .جُثث بني جنسك، وحلفائك تفترش الأرض.. تلك حرب، وقد انتصر بها البشر..

ثم رفع سيفه بوجه إبليس الذي تراجَع وهو يقول:

– لا يغرنك انتصارك.. فأنا باقٍ وأنت، وقومك زائلون.. سأعيد الكرَّة يومًا ما.. سأعيدها مرة ومرتين وثلاثًا مراتٍ حتى أنجح.. سأُزيلُ مُلككم من تلك الأرض، وسآخذ أرواحكم معى إلى الجحيم..

ردَّ عليه مهلاييل بسخرية:

– لن يتبعك إلا الخاسرون من أمثالك، والآن ارحل من أرضي..



ثم صرخ مهلاييل بوجه إبليس في ثباتٍ:

– سنتوحَّد، ونتسلح، ونُحصّن مُدننا، وإذا وجدنا شيطانًا واحدًا في أرضنا سنقتله.. لا مكان لك الآن على هذه الأرض يا إبليس..

لم يرد عليه إبليس، ولكنه أشار إلى قواته بالرحيل في حين قال إبليس لنفسه بصوتٍ لم يسمعه أحدٌ غيره:

– سأعود..يومًا ما..

وقد خُيِّلَ اليه، وهو يسير مُنسحبًا ببقية جيشه أنه يسمع صوت ضحكات آدم الساخرة تتردّد حوله في كل مكان.

***

سار الرجل الضخم الأجعد الشعر الذي ينحدر من نسل هابيل بجوار مهلاييل وقونوش قائلًا له:

– لم أكن أترك أبناء عمومتي وحدهم قط في تلك المعركة.. فإن إبليس لو انتصر عليكم اليوم كان سينتصر عليَّ، وعلى قومي غدًا.

توقّف مهلاييل فجأة ثم أمسك ذراع الرجل الضخم، وهو يقول له بصوت يملؤه التساؤل والحيرة:

– كيف عرفتم أننا نتعرض لهجوم؟ وكيف وصلتم إلينا في الوقت المناسب؟

ردَّ عليه الرجل قائلًا، وعلى وجه ابتسامة هادئة لم يسبق لمهلاييل أن رآها من قبل:

- جنود ربك كُثُر، وهم موجودون بكل مكان..

صمت مهلاييل قليلًا في حين عاد الرجل ليقول بنفس الهدوء:

- مهما يكن بيننا من اختلافات.. فلم يكن بمقدوري أن أرى أبناء عمومتي يسقطون أمام الشيطان، وأنا لا أتحرك.

ردَّ عليه مهلاييل:

- أرجو أن تكون تلك اللحظة بادرة سلام بيننا.

تجهَّم وجهُ الرجل قليلًا، ولكنه ظل محتفظًا بهدوئه، وهو يقول:

- لا..بالطبع لا.

لم يهتم مهلاييل بإجابته لكنه قال مازحًا:

- في المرة القادمة حاول أن تكون في المعركة منذ بدايتها لأنك لم تحضر سوى خواتيمها فقط يا ابن عمومتي..

قهقهَ الرجل الضخم وهو يقول:

- في المرة القادمة يا ابن عمومتي حاول أن تطلب المساعدة مبكرًا، وستجدني عندك قبل بداية المعركة..

ضحك مهلاييل واستمر الرجلان في سيرهما.

وصل مهلاييل ورفيقه إلى بوابة بابل فدخلاها، وبمجرد أن رأى الناس مهلاييل حتى انفجروا صائحين فرحين بالنصر، وكان ذاثاروس جالسًا على الأرض ينظر حوله في دهشةٍ مما آلت إليه الأمور، كان الحكيم العجوز يقف بجوار ذاثاروس.. تحرَّك مهلاييل حتى وقف أمام ذاثاروس مباشرة ثم دعاه لأن ينهض، وهو يقول له بصوت قوي:

– يمكنني أن أقتلك الآن كما قلت لك أثناء المعركة..

التقط الحكيم طرف الحديث، وهو يقول ناظرًا إلى مهلاييل:

– لكن حُكم الله عليك، وعلى قومك يجب أن يُنفَّذ..

ثم مال الحكيم على مهلاييل، وهمسَ في أذنه بكلمات لم يسمعها أحدٌ من الواقفين حولهما، وبعد ان انتهى عاد إلى موضعه في حين شَدَّ مهلاييل قامته في اعتداد، وهو يقول بصرامة:

– بحكم الله، وباسمه، وبإذنه.. أنت منفيٌّ في ظلمات المحيط.. لا تغادره أبدًا.. حتى تتم شروط خروجك من منفاك بإذن الله وحده، وبشروط فكِّكَ التي لا يعلمها أحد سوى الله، وسوى عددٍ قليلٍ من عباده.. اذهب يا ذاثاروس.. ملعون أنت.. أينما حللت، خارجًا من رحمة الله.. إلى يوم تُقبض روحك..

***



مصر الفرعونية..

عام 28 ق.م

– ماذا سنفعل أيها الكاهن الأكبر نحن في ورطة حقيقية؟!

انطلق ذلك التساؤل من فم أحد الكهنة الأربعة الكبار في مصر القديمة.. المجتمعين داخل أحد المعابد في جنوب البلاد ليناقشوا حدثًا جللًا..

رد عليه الكاهن الأكبر قائلًا:

– لا مناص من الأمر.. سيُحنَّط، ويُدفن..



ليتدخل آخر في الحديث قائلًا:

- هكذا فقط.. رجلٌ كهذا، وبالأسرار التي معه حتى بعد موته يجب أن يقوم بحراسة مقبرته أكفأ رجال في الحرس الملكي.. حتى يحموا المقبرة من عبث الطامعين..

رد آخر:

- لن يقبل الملك بهذا.. يترك أفضل رجاله بعيدين عن العاصمة، وفي أقصى جنوب البلاد..

قال الكاهن الأكبر:

- وإذا تركنا فرقة من الحرس على المقبرة.. سيكون هذا مثارًا للشك، وللتساؤلات من عامة الشعب، وسنتورّط فيما لا يُحمد عقباه..

صمت الجميع بعد جملة الكاهن الأكبر قليلًا.. هم الوحيدون في هذا العالم الذين يعرفون مَنْ هو إمحوتب، ومن أين جاء؟ وماذا أتى معه من أسرار وعلوم؟ حتى الفرعون نفسه لا يعلم سر إمحوتب هم الأربعة فقط من لديهم السِّرُّ، القوة، المعرفة المطلقة..

عاد كبير الكهنة قائلًا:

- تلك الأسرار التي ستُدفن مع إمحوتب إذا وقعت في الأيدي الخطأ.. فستُعاني الويلات، وسيغضب علينا أمون كما غضب عن أسلافنا..



ساد الصمت دقائق، والجميع يُفكرون في تبعات موت المهندس إمحوتب.. حتى تحدّث أحدهم بصوت خفيض متردد قائلًا:

- لا مفر إذن لنفعلها على الطريقة القديمة..

نظر له كبير الكهنة نظرة متسائلةً مُستحثًا إياه على التوضيح في حين سأله أحد الكهنة قائلًا:

- لا أعتقد أنك تُفكّر بهذا؟

ردَّ عليه الكاهن:

- لا مفر من ذلك سنستعين بأحد الكيانات السوداء ونتركه لحراسه المقبرة.. أعلم أن هذه الطريقة قد توقفنا عن استخدامها منذ ما يربو عن العقدين، ولكن الأمر جد خطير..

صمت الجميع وقد توقعوا ثورة غضب مفاجئة من الكاهن الأكبر، لكن رده قد أذهلهم جميعًا وهو يقول في هدوء:

- أعتقد أن هذا هو الحل الوحيد لإنقاذ الأمور.. اسمعوني جيدًا فيما سأقوله.. سأنفذ اقتراح زميلنا مع تعديل بسيط.. منذ آلاف السنين كان هناك كيان أسود يحاول أن يسيطر على الأرض.. كان البشر ضعفاء، وقليلين في هذه الوقت.. قام هذا الكيان بجمع جيشٍ ضخمٍ وواجَه به جيش البشر.. الذين وقفوا أمامه، وبعد معركة كبيرة سُفكت فيها الدماء، وصَدِئت فيها السيوف.. نجح الأجداد في

هزيمته، وحكموا عليه بالنفي في قاع البحر الذي يطلُّ على نهاية العالم..

نظروا إليه متسائلين وقال أحدهم:

– إذن فقد نُفيَ هذا الكيان.. ما علاقته بموت مهندسنا الأعظم؟

تابع الكاهن الأكبر كلامه متجاوزًا تساؤلاتهم قائلًا:

– طريقة استعادة هذا الكيان موجودة لدينا، وتلك الطريقة هي أحد أسرارنا العظمى..

قال أحد الكهنة:

– إذن يا سيدي أنت تريد أن تُحرِّرَ هذا الكيان الأسود من منفاه..

ليرد آخر:

– وماذا إذا أصبح هذا الكيان حُرًّا، ولم نستطع السيطرة عليه، وحاول هو إعادة الكرّة مرة أخرة مُحاولًا اجتياح الأرض.. كيف سنتصرف؟ بهذه الطريقة سوف تضيع تضحية الأجداد ودماؤهم التي بذلوها في سبيل محاوله إيقاف هذا الكيان..



انتظر كبير الكهنة حتى انتهوا من اعتراضهم الجماعي ثم قال:

– الصبر من الفضائل التي يجب على الإنسان أن يتحلَّى بها.. لو انتظرتم حتى أنتهي من كلامي.. ستعرفون فيما أُفكِّر.. أنا لم أقُلْ أنني سوف أحرر هذا الكيان، بل ما أفكر فيه فعليًّا هو تغيير مكان نفي هذا الكيان من ظلمات البحر إلى مقبرة إمحوتب، وهذه أقوى حماية لمقبرة مهندسنا الأعظم..

تلاقت فيما بينهم نظرات غير مقتنعة بما يقوله كبيرهم الذي عاد ليقول:

– سأُكرِّر عليكم مرة أخرى:

القوة التي جاء بها إمحوتب لا يستطيع أحد التحكم بها وستؤدي إلى فناء أرضنا مرة أخرى.. فحتى إذا لم يقم ذلك الكيان بحراسة المقبرة.. فإذا فُتحت تلك المقبرة لأي غرض سينطلق منها الشَّرُّ ليدمر الأرض ومَن عليها، وستحلُّ اللعنة بنا.. لذلك فوجود هذا الكيان سيكون هو خط الدفاع الأول والأخير بالنسبة لنا.. فلا فارق.. ثم إن الطلاسم التي ستوضع على باب المقبرة.. لن يستطيع أيُّ بشري فكَّها..

ثم أشاح بوجهه بعيدًا وهو يقول بصوت هامسٍ:

– حاليًا على الأقل.



وارتفع صوته مرة أخرى ليقول:

- الإله لم يدع الفرصة لإمحوتب ليخبرنا بطريقة حماية الأسرار التي بحوزته.. كل ما قاله إنه يجب أن تُدفن معهز

ثم يفرد قامته وهو يقول:

- تلك محاولتنا الوحيدة، ولنأمل أن تنجح.

***



استيقظ عبد القادر على صوت صُراخ، وأبواق سيارات شرطة أو إسعاف أو مطافئ.. لطالما تشابهت أصواتها.. لكن كلها تدلُّ على حدوث كارثة أو مصيبة.. أصوات الصراخ، والعويل يشعر أنها تصدر من رأسه..كان حلقه جافًا وكأنه لم يشرب منذ أيام.. عرقه غزيرٌ رغم برودة الجو، أطرافه ترتجف انفعالًا.. نهض مُترنِّحًا من فِراشه واضعًا يده على رأسه.. لا يتذكر ماذا حدث بالأمس.. كل ما يتذكره أنه كان بغرفة ابنه محمد.. كيف، ومتى عاد إلى غرفته.. الصراخ، والعويل تزداد حِدةً..

سار باتجاه باب منزله ثم فتحه.. ليجد حالة من الهرج والمرج وكأنه يوم الحشر.. رجال يبكونو ونساء يلطمنَ.. العديد من رجال الشرطة والمخبرين.. عشرات من سيارات الإسعاف وأضعافها من سيارات الشرطة.. خطا عدة خطوات بعيدًا عن محيط منزله وهو يسأل أحد جيرانه الواقفين أمام منازلهم بفضول:



- خير يا حاج مسعد الدنيا مقلوبة كدا ليه؟

رد عليه مسعد:

- بيقولك لقوا عشر جثث في 3 عمارات في آخر الشارع، وبيقولك متقطّعين، وحالتهم بالبلا..

صُعق عبد القادر من كلام جاره، وقد نما في قرارة نفسه.. أن كل هذا من تبعات فتحه لتلك المقبرة.. المقبرة الملعونة...

***



صعدَ المُقدم أحمد درجات سلم مديرية أمن المنيا في كسل وتراخٍ، كان طويل القامة، عريض المنكبين، قمحي البشرة، ذقنه حليق، ولديه شارب مُهذَّب، وعيناه العسليتان هادئتان لا تنُمّان عما يعتمل بداخله.. بالرغم من ملامح وجهه الحادة.. توقَّف ثم أوقف أحد العساكر المارين بجواره ليسأله بغلظة:

- مكتب المقدم فاروق فين يا ابني؟

يرد عليه الجند، وهو يرفع يده بالتحية العسكرية في رهبة:

- الدور التالت يا باشا..

تركه المقدم أحمد ليكمل طريقه صاعدًا إلى الطابق الثالث ليسأل أحد العساكر مرة أخرى عن مكتب المقدم فاروق ليدله على مكانه.. وقف أمام الباب لحظاتٍ ثم فتحه ودلف إلى داخل المكتب.. ليستقبله فاروق، وقد نهض من خلف مكتبه قائلًا:



– أحمد باشا إزي سعادتك، لما بلغوني من القاهرة إنك هتيجي هنا فرحت قوي.. تقريبًا متقابلناش من بعد ما إتنقلت أنا للصعيد..

كان فاروق لا يختلف عن أحمد في شيء سوى أنه شديد البياض، ومقدمة رأسه تميل إلى الصلع، وأقصر قامة منه بعض الشيء..

احتضنه أحمد وقبَّله وهو يقول:

– ليك وحشه يا فاروق بيه، والله فينك يا راجل كدا متسألش..

دعاه فاروق للجلوس أمامه وهو يسأله:

– إنت عارف بقي يا أحمد بيه الوضع في الصعيد مختلف عن القاهرة وأنت سيد العارفين.. ها تشرب إيه؟

رد عليه أحمد قائلًا:

– أنا عارف والله يا فاروق ربنا يكون في العون.. قهوة سادة بعد إذنك..

يرفع فاروق سماعة الهاتف ثم يطلب رقمًا واحدًا ويطلب من محدثه فنجاني قهوة وعلبة سجائر..ثم وضع سماعة الهاتف مكانها وهو يقول لأحمد:

– شُفت المصيبة اللي إحنا فيها..؟

رد عليه أحمد في برود:



– يا راجل بس متقولش مصيبة كل حاجة تحت السيطرة..

يقول له فاروق وهو يتصنع الانشغال بمطالعة عدة أوراق أمامه:

– طب لو هي مش مصيبة.. تقدر تقولي الوزارة مقلوبة ليه؟ تقدر تقولي إنت هنا بتعمل إيه؟

أُسقِطَ في يد أحمد من لهجة صديقه فقال له موضحًا:

– مش قصدي كدا.. أنا قصدي إن الموضوع هيتحل صحيح في عشر جثث وهو بصراحة رقم كبير مش متعودين عليه.. وصحيح إن القضية بقت قضية رأي عام والجرايد، والتليفزيون شغالين على ودنه.. بس هتتحل إن شاء الله..

نظر له فاروق نظرة طويلة وهو يقول له:

– أنا بقالي في الشغلانة دي عشر سنين يا أحمد واللي شوفته دا مش طبيعي.. الجريمة دي غريبة بكل المقاييس اللي إشتغلنا عليها قبل كدا..

بدا الاهتمام على وجه أحمد وهو يسأل صديقه:

– أنا سمعت إن الجثث كانت متقطعة حتت الكلام دا مظبوط..؟

رد عليه فاروق قائلًا محاولًا جذب انتباه صديقه أكثر:

– متقطعة إيه بس الجثث سليمة بس ...



صمت فاروق ليستحثه أحمد على المواصلة قائلًا:

– بس إيه؟

أخرج فاروق ورقة من درج مكتبه وهو يقول:

– بُص يا سيدي.. باديء ذي بدء اللي هقوله دلوقتي هيمشي علي كل الجثث.. عندنا عشر جثث، خمس جثث ذكور، وخمسة إناث.. كل الجثث اتعرضت لذبح قطعي..

ثم أقرن قوله بأن أشار إلى رقبته بعلامة الذبح من الأذن إلى الأذن..

– وبعد كدا عند شق من أعلى الصدر لغاية أسفل البطن.. كل جثث الذكور مقطوع منها العضو الذكري بتاعها..

اقشعرّ جسد أحمد عند ذكر تلك النقطة.. فابتسم فاروق، وعاد ليستكمل كلامه:

– بالنسبة للإناث العضو الأنثوي مشوه تمامًا..في بعض الجثث اتقطع منها ألسنة أو مناخير.

ثم صمت لحظات وعاد ليتابع:

– أو عيون، وطبعًا الحاجات دي كلها مش موجودة جنب الجثث، وعلى فكرة كل الجثث دي مُصفّاة تمامًا من الدم..



فغر أحمد فاه، وقد اختلطت المشاعر على ملامح وجهه ما بين خوف وامتعاض وغضب وتعجُّب ودهشة.. ثم أعطاه فاروق الضربة القاضية عندما قال له بصوت ساخر:

– خُد التقيلة بقى يا أحمد بيه..

ظل أحمد على وضعه رافعًا حاجبيه، متسع العينين، فاغرًا فاه.. في حين قال فاروق:

– تقرير الطب الشرعي بيقول إن كل الجرايم دي حصلت في ساعتين بس، واللي عملها كمان حد محترف.. يعني مش أول مرة يعملها..

نهض أحمد من مقعده كمن لدغه عقرب، وهو يصيح قائلًا:

– ساعتين إيه أقتل عشر أنفار، وأقطّع في لحمهم، وكل ده في ساعتين؟ ليه يا عم دا كدا القاتل مش فرد واحد دا كدا جماعة أو تنظيم؟!

رد عليه فاروق قائلا:

– اقعد بس يا عم..

جلس أحمد ثم أخرج علبة سجائره، وأخرج منها واحدة ناول فاروق إياها الذي التقطها وأشعلها في لحظتها، ثم أشعل السيجارة لأحمد الذي نفث دخان سيجارته بعصبيةٍ كقطار قديم وهو يقول:



- الموضوع مش سهل فعلًا.. أنا برضة لما عرفت إن مساعد وزير الداخليه بنفسه دخل في التحقيقات حسيت إن الموضوع كبير..

وصمت لحظات ليسحب نفسا عميقًا من سيجارته ثم أخرج الدخان من فتحتي أنفه وهو يسأل صديقه:

- طيب المباحث هنا موصلتش لحاجة.. يعني أي خيط يقدر يوصلّنا للي عمل المدبحة دي؟

- ولا أي حاجة خالص.

- طيب ممكن نتكلم في التار مثلًا..

- تار إيه يا أحمد بيه؟.. عزبة (شمس الدين) هادية، وناسها ماهمش في اللبش دا.. الأمر دا مستبعد تمامًا..

- أكيد الموضوع مش سرقة مثلا أو خلافات عائلية؟

- مفيش الكلام دا خالص ثم إن كل اللي إتقتلوا ناس عاديين جدًّا، وفي حالهم محدش سمع عنهم حاجة..

سحب أحمد آخر أنفاس سيجارته، وقام بدفنها في منفضة السجائر التي أمامه تزامن هذا مع دخول عسكري يحمل فنجانين من القهوة، وضع أحدهما أمام أحمد والآخر أمام فاروق ثم انصرف..

يستطرد أحمد مفكرًا مع نفسه بصوتٍ عالٍ:



– مفيش تار، ولا سرقة.. ممكن يكون الموضوع فيه انتقام مثلًا أو تصفية حسابات..

نظر له فاروق بتهكُّم وهو يقول:

– عشر جثث من 3 عائلات مختلفة مدبوحين، ومتاخد منهم حتت هيبقى انتقام؟ لا مش منطقي بس مش مستبعد.

نهض أحمد من مقعده، وهو يقول:

– طيب ركّز معايا.. عايز تحريات المباحث عن ال3 عائلات دول تمام، وعايز أعاين مسرح الجريمة، وتقرير الطبيب الشرعي، والطبيب الشرعي ذات نفسه..

نهضَ فاروق بدوره وهو يقول له:

– داخل حامي إنت قوي بس مش مشكلة.. عمومًا المديرية هنا جهّزت لك مكتب هروح معاك ليه، وأظبطلك أمورك هنا.. بالنسبة للتحريّات نُص ساعة هتبقى عندك، وهجيبلك كمان تقرير الطب الشرعي معاها.. أما الطبيب اللي شرّح الجثث هو مبعوت من القاهرة ولما خلّص سافر.. بس أنا معايا رقم تليفونه هديهولك، وأنت كلمه، وبالنسبة لموقع الجريمة هبعت معاك قوة، وتعاين الوضع هناك.. تمام كدا؟!



نظر له أحمد نظرة ذات مغزًى وهو يقول له:

– معتقدش إن فيه حاجة هتبقي تمام..أبدًا.

***



جلس عبد القادر على أريكته الخشبية أمام باب منزله تائهًا.. مُغبرّ الشعر أشعثه، ملابسه غير مرتبة، وعيناه حمراوان من أثر عدم انتظام النوم، والإجهاد البدني، والعصبي.. هو يعلم في قرارة نفسه أن فتحه لتلك المقبرة كان نذير شؤم، وعقله لا يريد الهدوء.. حتى ابنه محمد من بعد الحادث الذي مر به منذ سنوات طويلة، وقد مُحيت أجزاء كبيرة من آثاره، وقد تحسّنت حالة ابنه، وأصبح يتحدث مع الناس حتى ولو بكلمات قليلة، ويتفاعل معهم.. صحيح أنه يقضي أغلب الوقت شاردًا صامتًا.. لكنه تحسَّن عن ذي قبل.. منذ فتحه لتلك المقبرة، وأصبح حال ابنه يسوء، ويعود كما كان من قبل، لا يتكلم، لا يتحرك، تصيبه نوبات الصرع المفاجئة، يتحدث بجمل غير مفهومة..

– سيدي جه.

تردّدت تلك الجملة في رأسه بصوت ابنه في رأسه.. مما جعله ينتفض من مكانه، نظر حوله في خوف واضح.. ثم أخرج هاتفه المحمول يحاول أن يتصل بزكريا.. طلب رقمه، انتظر لحظات حتى سمع صوت رنين الجرس لكن لم يرد أحد من الجهة المقابلة.. عاشر اتصال، ولا يرد زكريا على أي اتصال منها، يخشى أن يكون قد أصابه مكروه.. خاصة أنه لا يعلم عنه أي شيء من بعد فتحهما للمقبرة معًا.

يرتفع رنين هاتفه في هذه اللحظة.. يرى رقم زوجته على الهاتف إنها خارج عزبة شمس الدين هي، وبقية أولاده في زيارة عائلية في إحدى القُرى المجاورة لهم.. يرد على الهاتف..

كانت المكالمة تدور حول رغبة زوجته في الاطمئنان عليه، وعلى ابنها محمد، ولم تخلو المكالمة من لمحة فضول أنثوي قاتل، وهي تسأله عن الأخبار التي جاءت من العزبة حول المذبحة التي حدثت على أرضها.. حاول إنهاء المكالمة مُبكرًا قدر المستطاع مع الكثير من "لا إله إلا الله، محمدا رسول الله".. حتى استطاع بنجاح إغلاق هاتفه قبل أن يغرق بسبب سيل الأسئلة الخارج من فم زوجته..

الشمس ساطعة إلى حدٍّ لا يستطيع احتماله.. هو من قضى سنوات عمره التي تزيد عن الخمسين بقليل معانقًا لقرص الشمس كل صباح.. لا يستطيع احتمال شمس الظهيرة في فصل الشتاء.. لملم



أطراف جلبابه ثم نهض، ودخل مترله، أراد أن يطمئن على ابنه محمد فصعد إلى حيث غرفة ابنه فتح بابها، ولم يجد ابنه على الفِراش.. ظنَّ أنه قد ذهب إلى الحمَّام فنادى عليه عدة مرات، ولكن ما من مُجيبٍ.. أخذ القلق يغزو تفكيره، وأصبح يبحث في أرجاء المترل كالمجنون.. فتح كل غرف المترل، على سطح المترل.. حتى إنه فتح باب المترل ليرى ابنه إن كان قد تسلل خارجًا كما كان يفعل من قبل أم لا؟ وقف لحظاتٍ يعتصر مُخَّه.. حتى وجد أنه لم يبحث في مكانٍ واحد.. المقبرة أسفل مترله.

شعر برجفة في جسده، وهو يذهب إلى حيث المقبرة حتى لاح له مدخلها النازل تحت الأرض، وخُيِّلَ إليه إنه رأى ظِلًّا يدخل إلى المقبرة.. ليس جسدًا ولكن مجرد ظل.. فرك عينيه ثم استجمع شجاعته، ونزل على السلم الخشبي المُثبت في مدخل المقبرة.. حتى ولج إليها.. لم يكن بداخلها أحد..

لحظة.. الشموع ما زالت مشتعلة كما هي.. هل شموع هذه الأيام تبقى مشتعلةً يومين كاملين بدون أن ينقص منها سنتيمتر واحد؟ بدأ الرعب يتغلغل في نفسه، وأصبح غير مسيطرٍ على تنفسه.. يتراجَعُ ببطء ليخرج من المقبرة بدون أن يُعطيها ظهره، وبمجرد أن اقتربَ من باب المقبرة حتى أغلق الباب من تلقاء نفسه، وقد أصبح عبد القادر حبيس تلك المقبرة.. أخذ يضرب باب المقبرة بقبضتيه.. ثم نزل



ووقف وسط المقبرة، وهو يدور حول نفسه باحثًا عن مخرج، وأخذت أنفاسه تتهدّج، والعرق يسقط على عينيه فيحرقها.. حتى سمع صوت حركةٍ خفيفةٍ تأتي من اللامكان، ومن كل مكان حوله.. يشعر أن هناك نفسًا آخر يتنفس معه داخل المقبرة.. الحركة تزداد سرعةً.. لم يعد يشكُّ أن هناك أحدًا معه داخل المقبرة..

حاول إغلاق عينيه حتى لا يرى مصيره الأسود.. إلا أنه أحس بشخصٍ ما يقف خلفه.. رائحة أنفاسه الكريهة تتغلغل إلى ثنايا عقله.. ثم سمع صوتًا كأنه صوت كتلة معدنية ثقيلة تُزاح من مكانها.

استدار سريعًا ليرى التابوت الحجري الثقيل الذي يزن أكثر من مئة كيلوجرام يتحرك من تلقاء نفسه منفتحًا.. ثم انطفأت الشموع التي ظلت مشتعلة مدة يومين، وصرخ عبد القادر صرخة عظيمة، وهو يغلق عينيه..

لم يشعر بشيء.. لا حركة خافتة من حوله، لا صوت تنفس أحدٍ معه في نفس المكان.. لا شيء.. تدريجيًّا فتح عينيه.. حتى فتحهما على اتساعهما.. لقد كان هناك في غرفة ابنه محمد، والأخير راقدًا على فِراشه بدون حراكٍ!

***



جلس المقدم أحمد في مكتبه المُجهَّز له خصوصًا في مبنى مديرية أمن المنيا.. كان يدخن السجائر بلا انقطاع، وأمامه رزم من الأوراق مبعثرة في كل الاتجاهات.. كان قد خلع معطفه وربطة عنقه وبقيَ فقط بقميصه وإن كان قد كشف عن ساعديهو وبدا غارقًا حتى النخاع في تفاصيل تلك القضية.. أخذ يفكر.. ليس من السهل على شخص واحد قتل عشرة أشخاص في أقل من ساعتين.. ليس فقط قتلهم بل التمثيل بجثثهم أيضًا.. ثم إنه كيف لم يقاومه أحدهم؟! هناك على الأقل خمسة رجال قد تم الإجهاز عليهم في تلك الليلة.. كيف لم يُبدِ أحدُهم أي نوع من أنواع المقاومة؟! كيف لم يصرخوا.. أو يستنجدوا؟!

سحبَ نفسًا عميقًا من سيجارته ثم ألقاها أرضًا بإهمالو وهو يرفع سماعة الهاتف الموضوع بجواره ليطلب قدحًا من القهوة.. ثم خطر على



باله فكرة.. اصطاد هاتفه المحمول من بين الأشياء المبعثرة وسط مكتبه، ثم أخذ يبحث في الأرقام عن رقم شخص معين حتى وجد ضالته المنشودة.. اتصلَ به، وظلّ ساكنا لحظات حتى أتاه صوتٌ من الطرف الآخر:

- إزيك يا أحمد بيه؟ أخبارك إيه؟

أحمد:

- الحمد لله يا دكتور أنت عامل إيه؟

الطبيب:

- الحمد لله.. خير؟

أحمد:

- لا خير طبعًا.. بقولك إنت متابع قضية مذبحة بني مزار؟

الطبيب:

- آه طبعًا دي مصر كلها متابعاها،والإشاعات ماليه البلد حوالين القضية دي.

أحمد:

- إشاعات زي إيه مثلًا؟



الطبيب:

– يعني ناس بتقول مثلًا عن دا بسبب الجن ولعنة الفراعنة، وعلى فكرة في جريدة رسمية حكومية قالت نفس الكلام دا.. تخيّل لما جريدة رسمية تطلع تقول إن الجن كان السبب في قتل عشر أشخاص بطريقة بشعة زي دي؟

أحمد:

– طيب إنت يا دكتور إيه رأيك..؟ كطبيب نفسي متخصص القاتل دا اللي إرتكب الجريمة.. هل هو مثلًا مجنون أو شخص سادي مثلًا؟

الطبيب:

– بُص هو لو صحيح إن القاتل كان بيقطع الأعضاء التناسلة أو بيشوهها فإحنا قدام حالة شخص عنده عقدة الإضطهاد ومختل عقليًّا بدرجة كبيرة، ضيف كمان على كدا إنه عنده هوس جنسي شديد..

أحمد:

– طيب هل ممكن يكون مثلًا الجرايم دي مش مخطط لها؟! بمعنى أصح أرتكبت بشكل عشوائي. وبدون تخطيط مسبق..؟



الطبيب:

- مستحيل.. أنا أعتقد إن القاتل أيًا كان عنده دافع ودافع قوي كمان.. لأن التمثيل بالجُثث دا لا يدل غير على إن القاتل بيحمل كراهية شديدة للمجني عليهم..

بدأت الخيوط تتشابك قليلًا في رأس المقدم أحمد فحيًا صديقه وشكره على تلك الاستشارة المجانية السريعة، ثم أنهى معه المكالمة ليقوم بالنداء على العسكري الرابض أمام باب مكتبه ليدخل عليه الأخير رافعًا يده بالتحية العسكرية فيقول له بلهجةٍ آمرة:

- إبعتلي الرائد حسين يا ابني ضروري..

رفع العسكري يده مرة أخرى ثم هُرع خارجًا لينفذ الأمر، ولم تمضِ لحظات حتى دخل الرائد حسين الذي بادر أحمد قائلًا:

- أؤمرني يا أحمد بيه...

دعاه أحمد للجلوس أمامه وهو يقول له باهتمام شديد:

- اسمعني كويس يا حسين.. أنا عايز تحريات المباحث العامة عن الناس اللي إتقلت دي هل كان عندهم عداوة مع حد.. عليهم قواضي، فيهم حد مُسجّل، إتخانقوا مع حد من جيرانهم قبل كدا.. أي مشكلة وقعوا فيها حتى ولو من خمس سنين..



ثم أشار بيده إشارة بلا معنى، وهو يستطرد قائلًا:

– عايز كمان حصر بالناس اللي عندهم مشاكل نفسية مثلًا.. حد مجنون، حد عنده تخلف عقلي.. حد عنده سابقة تعدّي بسلاح أبيض على جار ليه، وطبعًا كل دا في محيط الشارع اللي وقعت فيه الجريمة..

رد عليه الرائد حسين:

– تحت أمرك يا أحمد بيه.. تؤمرني بأي حاجة تانية..

ردَّ عليه أحمد وهو يشعل سيجارة جديدة قائلًا:

– لا تمام كدا بس حاول تجيب لي اللي أنا طلبته في أقرب وقت ممكن..

نهض الرائد حسين ورفع يده بالتحية العسكرية، ثم غادر المكتب..ليترك أحمد وحيدًا تلتهمه الأسئلة..

***



اللَّطمة الأولى

صيف عام 1990..

مرّت عدة أشهر على الحادثة المخيفة التي مَرَّ بها الطفل محمد.. لقد أتمّ ثماني سنوات من عمره.. كان يُغافِل والديه باستمرار ليخرج من منزله، ويسير هائمًا على وجهه بدون أي هدف.. يظل سائرًا.. شارد العينين، معقود اللّسان، خائفًا، مُتردِّدًا.. لقد لُوِّثت فِطرتُه وانتزِعت آدميته وطفولته في تجربة مريرة.. ليس لها سبب ولا مسبب.. سوى أن القدر اختاره هو دون سواه من أقرانه.. كان يسير،ويسير، ويسير.. حتى يعود به أحد الأقارب أو المعارف أو الجيران لأبيه الذي بمجرد أن يراه ينقضُّ عليه ضاربًا ومُنكِّلًا به..



وفي صباح أحد الأيام بعد الحادثة كان يسير على غير هدي كعادته حتى قابله مجموعة من الصبيان يلعبون، وعندما مَرَّ على مقربة منهم صاح أحدهم متهكمًا:

- إبعد يا محمد عننا إنت بقيت ملبوس، وعليك جن..

يضحك الأطفال وهم يُشيرون إليه بأصابعهم المتسخة، وأظفارهم الطويلة فينظر إليهم محمد بحقدٍ، ويحاول أن يحرك شفتيه ليقول شيئًا ما ليدافع عن نفسه، لكن شفتيه لا تتحركان، ولسانه ما زال معقودًا.. فاكتفى الطفل الصغير بنظرة لائمةٍ مُطلقًا بها فيضًا من الغِلّ ولمحة من الكراهية.. في حين استمرَّ باقي الأطفال في سخريتهم منه حتى قام أحدهم بالانحناء، والتقاط حجرٍ صغيرٍ من على الأرض ثم قذفه على محمد.. تبعه باقي أقرانه برجم محمد، وهم يقولون بصوت مُنغَّمٍ:

- الملبوس أهو أهو.. الملبوس أهو أهو..

لم يحاول محمد الدفاع عن نفسه.. بل استدار موليًّا لهم ظهره تاركًا الحجارة ترتطم برأسه، وتدميه، وترتطم بظهره وتؤلمه..

وابتعد، لم يكن يتأذّى، ولم يكن يتألم كثيرًا، وكأن الحادث قد أثّر في مُستقبلات الألم في فصِّ مُخِّه الأيمن.. كم كان لحظتها يودُّ الصراخ في وجوههم! كم كان يودُّ أن يمزق أجسادهم جميعًا! كم كان يودُّ أن يراهم جميعًا يمرون بنفس التجربة التي مرَّ بها!



استمرَّ في السير ببطء، والحجارة تنهال عليهو وهو يرى في مخيلته الطفل الصغير الذي نعته بالملبوس غارقًا في دمائه.. فَعَلَت وجهَه ابتسامةٌ لم تزره منذ شهور واستمرَّ بالسير.

***



لم يغادر المقدم أحمد مكتبه قط منذ استقدامه من القاهرة للمشاركة في التحقيقات.. كان يجلس على مكتبه، وتحاصِرُه الأوراق المبعثرة وأعقاب السجائر ودخانها، وأكواب القهوة الميري الصغيرة.. لم يكن مقتنعًا بقدرة شخص واحد على قتل عشرة أشخاص والعبث بجثثهم في وقت لا يتعدَّى الساعتين.. لا يمكن أن يفعل ذلك سوى الشيطان فقط.. لو استطاع فقط إلقاء القبض على الشيطان.. سيجعله يعترف بارتكاب كل الجرائم التي وقعت في مصر خلال أخر ثلاثة عقود.. لكن كيف سيستطيع إلقاء القبض على الشيطان؟ ظلّ السؤال يُحيِّره جديًّا.. هل هناك بشريٌّ قادر على ارتكاب تلك المذبحة وحده؟ أم هم مجموعة من القتلة؟ أم قاتل متسلسل؟ أم جهاز مخابرات معادٍ يريد بثّ الرُّعب في قلب المجتمع المصري؟ أم هي بالونة اختبار لرؤية مدى قدر الأجهزة الأمنية المصرية على العمل أمام ظروف خارقة للطبيعة؟ أم هي طائفة تقوم بعبادة معينة؟



قاطع سيل أسئلته المنهمرة صوت طرقات الباب.. ليأذن أحمد بدخول مَنْ بالباب.. دلف الرائد حسين إلى داخل المكتب، ورفع يده بالتحية العسكرية ثم يدعوه أحمد إلى الجلوس أمامه، وهو يقول له بلهفة:

- ها.. طمني؟ في جديد عندك؟

يقوم الرائد حسين بإخراج عدة ورقات من ملفٍّ كان يحمله في يده، وهو يقول له:

- كل المعلومات اللي حضرتك أمرت بجمعها موجودة قدام حضرتك..

وأقرن قوله بأن ناول أحمد الورقات الذي التقطها في لهفةٍ في حين تابع حسين التكلُّم بينما ينظر أحمد في الورق:

- ال 3 عائلات دول يا فندم.. مفيش بينهم وبين أي حد عداوة من أي نوع.. ناس في حالهم من زمان، والكل بيشهد ليهم بالطيبة.. باختصار شديد قوي يا باشا محدش كان سمعلهم حس..

قال له أحمد مستحثًّا إياه على التكملة، وعلى وجهه علامات الاهتمام والتركيز:

- كمل..



أكمل حسين كلامه:

– بالنسبة بقى لموضوع الناس اللي عندهم أمراض نفسيه.. مفيش إلا إتنين بس حضرتك في الشارع دا.. واحد منهم مقيم في القاهرة بصفه شبه دايمة عشان العلاج بتاعه، والتاني بقى كان ليه سابقة تعدي على واحد جاره بآلة حادة.. من حوالي تقريبًا تسع سنين، والأغرب بقى سعادتك إن الناس بتقول عليه ملبوس..

ردَّ عليه أحمد قائلًا:

– طيب تمام قوي كدا.. عايز مراقبة 24 ساعة على بيت الواد دا، وعايز تحريات أكتر عنه.. عايز أحس إني قاعد معاه في بيتهم يا حسين..

رد حسين قائلًا:

– متقلقش يا أحمد باشا.. إعتبر اللي طلبته حصل..

هَمَّ أحمد بقول شيء ما لكن صوت طرقات الباب منعه عن الكلام..أذنَ لمن بالباب بالدخول..كان العسكري يخبره أن سيادة العميد سليمان رئيسه المباشر يودُّ رؤيته لأمرٍ مُهمٍّ..

فقام أحمد بصرف العسكري ثم أمر الرائد حسين بالانصراف أيضًا مع تأكيده ضرورة تنفيذ ما طلبه بالحرف الواحد..



ارتدى معطفه ثم توجَّه إلى حيث مكتب العميد سليمان.. ثم وقف أمام باب المكتب لحظات ليضبط هندامه.. ثم طرق الباب منتظرًا الإذن بالدخول.. ليأتيه صوت رخيم يأذن له بالدخول.. يفتح باب المكتب ثم يدلف إليه، ويقف رافعًا يده بالتحية العسكرية، ويبتسم ابتسامة هادئة وهو يقول:

– مساء الخير يا سليمان باشا.. إزي حضرتك؟

ليرد عليه العميد سليمان بصوت وقور:

– الحمد لله يا سيادة المقدم.. إتفضل أقعد.

يجلس أحمد أمام العميد سليمان والأخير يسأله مستفسرًا:

– ها يا سيادة المقدم.. مفيش جديد وصلنا ليه؟

أحمد:

– والله يا فندم.. الأمور متلعبكة.. بس حاليًا في مشتبه فيه..

شحذت العبارة حواسَّ العميد سليمان فسأله باهتمام:

– عظيم جدًّا.. إشرح لي أكتر عشان أقدر أقيم الموقف، وأبعته للقاهرة..



عدّل أحمد من جلسته، وهو يقول للعميد:

– هو أنا عملت شوية تحريات، وجه في بالي من منطقية الجريمة إن اللي عمل كدا في الأغلب شخص مريض نفسي.. أو عنده خلل عقلي.. فعملنا تحرياتنا، ولقينا إن في شخص في نفس الشارع اللي وقعت فيه الجريمة عنده تاريخ مرضي نفسي، وكان ليه سابقة تعدّي على جار ليه بآلة حادة.. بس حصل صلح ما بينهم..

تهللت أسارير العميد سليمان، وهو يقول مبتسمًا:

– كدا القضية إتظبطت.. لازم تشتغل على الواد دا يا سيادة المقدم..

تنحنح أحمد في حرج ففهم العميد سليمان إنه يريد أن يقول شيئًا فشجعه قائلًا:

– في ايه يا سيادة المقدم؟ لو عندك حاجه قولها؟

تشجَّع أحمد من كلمات رئيسه فقال له بصوت متردد:

– بصراحة يا فندم.. الواد دا يعني قواه العقلية مش كاملة، وأنا قرأت في تقرير الطبيب الشرعي إن الضحايا كانوا متخدّرين قبل ما يتدبحوا، وفي نفس الوقت حتي لو إتفقنا إن دا القاتل.. فكدا لازم يكون ليه شركاء.. يعني تنظيم كامل.. يعني جريمة منظمة.. دا لو فعلًا الواد دا هو القاتل..



نظر العميد سليمان إلى أحمد نظرة ذات مغزًى، وهو يقول له:

– سيادة المقدم دلوقتي إحنا عندنا مشتبه فيه.. أيًّا كان بقي مجنون أهبل بيستعبط.. مش مشكلتنا.. أهم حاجة القضية تخلص.. الناس مستغربة من اللي حصل، وخايفين دا يتكرر تاني في أي مكان.. لكن لو عرفوا إن إحنا قبضنا على القاتل..الكل هيهدا..

ثم كرر كلمته مرة أخرى وهو ينظر مباشرة في عين أحمد:

– الكل هيهدا..

قال أحمد بصوت متردد وإن شابته لمحة غضب واضحة:

– حتى ولو مش هو دا القاتل؟

ليرد عليه العميد سليمان:

– حتى ولو هو مش القاتل.. لازم القضية تتقفل بأسرع وقت ممكن، القاتل كدا كدا هيتمسك، وهيتعدم.. بس التدوير عليه هياخد وقت طويل.. الناس مش هتستنى الكل هيتهمنا بالتقصير، ومش بعيد كبش الفدا يبقى من الداخلية..

ثم صمتَ لحظاتٍ، وعاد ليقول بصوت هادئ:

– صدقني يا أحمد.. دا الحل الوحيد عشان مصلحة الكل.. إشتغل إنت على الولد دا، ونشوف هنوصل لإيه..



ردَّ عليه أحمد وهو يحاول التمسك بهدوء أعصابه:

– خلاص يا فندم.. إديلي بس يومين كمان أظبط تحرياتي، وإعتبر أوامرك نافذة..

رد عليه سليمان بنفاد صبر واضح:

– وهو كذلك يا أحمد.. وهو كذلك.

ثم أشار له بالانصراف.. فنهض أحمد من مقعده وأدَّى تحيته العسكرية بهدوء، وفتور، وغادر المكتب، وقد قرَّر شيئًا واحدًا فقط.. تنفيذ الأوامر.. فقط.

***



اللَّطمة الثانية

صباح أحد أيام صيف عام 1994..

سار عبد القادر، وابنه محمد في أحد شوارع عزبة (شمس الدين) والأول يقول للثاني ناصحًا:

- زي ما فهّمتك.. هتروح تقف مع عمك بيومي في البقالة بتاعته.. اسمع كلامه في كل حاجة، وخليك راجل كدا..

كان محمد صامتًا لا يرد، وإن كان يوميء برأسه إيجابًا في صمت.

الآن مَرَّ على الحادث الأليم أربع سنوات، وتحسَّنت حالة محمد قليلًا، أصبح يتجاوب مع من حوله، ويتحدث قليلًا بعد أن كان صامتًا طوال الوقت..



كان الأب يحاول دمج ابنه في الوسط المحيط به مرة أخرى.. خصوصًا بعد أن ترك ابنه التعليم في نهاية المرحلة الابتدائية، ولم يجد طريقة أفضل من أن يجعله يعمل عملًا بسيطًا لا يتطلب مجهودًا بدنيًّا أو ذهنيًّا كبيرًا، ولم يجد سوى صديقه بيومي فالعمل في بقالته يتوافق مع المتطلبات التي يريدها لعمل ابنه، وفي النهايه هو صديقه، وسيرعى ابنه ولن يؤذيه أو يقسو عليه..

وصلا إلى الشارع الذي توجد به بقالة بيومي.. كانت البقالة عبارة عن دكان مساحته متران في متر، وجدرانها بالكامل عبارة عن رفوف خشبية بسيطة يدوية الصُّنع موضوع عليها بعض المواد الغذائية من أرز وعلب سمن وأكياس سكر وملح، وصندوق حديدي مقفل بابه بقفل صدئ من أثر الرطوبة، وخارج الدكان تقبع ثلاجة صغيرة بها بعض زجاجات مياه غازية، وبجانبها صناديق كثيرة ممتلئة عن آخرها بزجاجات مياه غازية فارغة، وكان بيومي الرجل السمين صاحب البشرة السمراء، والرأس الأصلع والعين المختفيتين وراء عوينات مقعرة يجلس أمام دكانه على كرسي خشبي صغير متهالك.. تهلّلت أساريره عندما لمح عبد القادر قادمًا نحوه فبادره مُلوِّحًا بيده محييًا إياه قائلًا:

- مرحب بيك يا عبد القادر يا أخويا عامل إيه؟ وإزيك وإزي عيالك؟



ثم نهض مُستقبِلًا عبد القادرو وهو يُسلّم عليه بحرارةٍ، ويحتضنه ثم يصافح محمد، ويُقبّله.. في حين ردّ عبد القادر عليه بودٍّ:

- الحمد لله يا بيومي يا أخويا.. إنت عامل إيه، وأخبارك إيه.؟

ردَّ عليه بيومي، وهو يقبل ظهر يده قائلًا:

- في نعمه الحمد لله يا عبقادر؟ إتفضل الدكانة كلها تحت أمرك..

تنحنح عبد القادر وهو يقول:

- بصراحة يا بيومي أنا كنت جاي قاصدك في خدمة..

قال له بيومي:

- أؤمرني يا عبقادر يا أخويا..إحنا أهل..

أكمل عبد القادر بصوت متردد:

- أنا كنت عايزك بس تشغّل معاك الواد محمد أي شغلانة..

تجهمت ملامح بيومي قليلًا وهو يقول:

- إنت شايف الحالة أهو بنفسك يا عبقادر الدنيا واقفة، والحال نايم على الآخر وبعدين..



قاطعه عبد القادر قائلًا بلهجة فيها قدرٍ كبيرٍ من الرجاء:

– متخافش مش لازم تديله يومية كبيرة، وأهو عندك أهو مرمط، وإعمل فيه اللي إنت عايزه..المهم يبقى راجل، وعضمه ينشف كدا..

كان محمد صامتًا طوال الوقت.. يعلم أن الحديث الدائر يتمحور، ولكنه لا يستطيع مشاركتهم الحديث.. يودُّ أن يقول لهم إنهم يراهم جميعا، يرى حقيقتهم، يراهم عرايا وهم يرتدون الأسمال.. لكنه اكتفى بالنظر إلى الشارع، وإلى المارين فيه بدون إبداء أي ردة فعل، وبعد مداولات عديدة بين أبيه وبين عم بيومي وافق الأخير على مضض بأن يجعل محمد يعمل لديه.. فلا مانع من وجود طفل صغير يقوم بالأعمال الشاقة نيابة عنك، وبالأخص إذا كان ابن أحد أصدقائك، وأيضًا إن لم يكن يأخذ مقابلًا كبيرًا عن أعماله.

– في فلوس واقعة على الأرض تحت البنك ليه يا ابن الكلب؟

انطلق ذلك التساؤل بصوت مرتفع من فم بيومي ويصاحبه تناثُر رذاذ اللعاب من فمه، وهو يصيح بمحمد الذي وقف أمامه صامتًا، ساكنًا في حين تابع بيومي مؤنِّبًا إياه:

– خمسة جنيه بحالها واقعة على الأرض منك..ليه هو مال يهود؟

تضايَقَ بيومي من صمت محمد فقال له متهكمًا:

– في إيه ياد إنت؟ ما تنطق هي القطه أكلت لسانك..؟



ثم اقترب منه وأمسكه من تلابيبه قائلًا:

- وحياة أمك لو شوفتك مهوب نحية البنك تاني لا أكون مادّك على رجليك زي البهيمة.. فاهم ولا لأ؟!

ثم دفعه بعيدًا عنه، وجلس على كرسيه الخشبي وهو يقول له:

- إجري ياد للقهوه هاتلي كوباية شاي، وحجرين معسل.. يالّا أنجر إمشي..

وقف محمد لحظاتٍ يتأمله بعينين مقهورتين، وقبضتين مكورتين يودُّ أن ينقض عليه، وينتزع عويناته السخيفة ومن ثم اقتلاع عينيه الضيقتين..كان مُقيّدًا، وفي نفس الوقت متعطشًا للانتقام، وللدماء، ولكن بيومي عاجله بصرخةٍ هادرةٍ:

- غور ياض يا ابن الكلب إعمل اللي قولتلك عليه.. جتك القرف فيك، وفي اللي جايبك ألف مرة أقول لك نضف التراب اللي على البضاعة كويس كلامي ما بيتسمعش ليه يا بهيم؟ الزباين هيشتروا إزاي؟ الزباين بتشتكي منك ليه؟ يا فاشل.. أنت مفيش منك رجاء، أنا دلوقتي بس عرفت أبوك ليه طلعك من التعليم بدري؟ عشان مخك الزنخ دا.. فين العشرين جنيه اللي كانوا في الدرج أنا حاططهم بإيدي الصبح يا حرامي، والله لا متصل بأبوك و أقول له.

***



وقف المقدم أحمد أمام بوابة مديرية أمن المنيا يدخن سيجارة، ويخبئ عينيه من شمس الصعيد الملتهبة خلف منظار أسود أدكن..

حتى توقّفت أمامه سيارة وارتفع من داخلها صوت الرائد حسين قائلًا:

- اتفضل يا أحمد بيه..

دلف أحمد إلى السيارة وهو يقول لحسين:

- ها.. أخبار التحريات إيه؟

ثم فتح علبة سجائره، وناول حسين سيجارةً، تناولها منه، وشكره بأدبٍ ثم أشعلها قائلًا:

- في واحد من ضمن الضحايا كان صاحب محمد عبد القادر لغاية الابتدائية..

رمى أحمد عقب سيجارته من شباك السيارة ثم التقط سيجارةً أخرى من علبته وأشعلها، وهو يقول:

– كويس جدًّا.. طيب إيه كمان..

أخذ حسين يُلوِّح بيده وهو يقول:

– برضه في ضحية من عائلة تانية كان ليهم علاقة ببعض.. الراجل العجوز اللي عنده بنتين، الراجل دا يبقى صاحب عبد القادر، وفي نفس الوقت محمد إشتغل عنده في محل البقالة بتاعه، وهو في الابتدائية مثلًا..

أخرج أحمد سُحبًا كثيفة من الدخان من فمه وهو يقول:

– طيب كدا فيه علاقه بين محمدو وبين حد من أفراد كل عيلة إتقلت.. بالنسبة للعائلة التالتة هل فيه علاقة بين أي حد من أفرادها، وبين محمد؟

صمت حسين لحظاتٍ وهو يقول:

– في يا فندم علاقة.. لا، وعلاقة قوية كمان..

اقترب أحمد منه برأسه فقال حسين:

– العائلة التالتة الابن الوحيد فيها.. هو دا الشخص اللي محمد حاول إنه يعتدي عليه بآلة حادة قبل كدا، والأغرب كمان إنه مكنش بينهم أي علاقة سابقه..



رفع أحمد حاجبيه، وهو يقول بصوت منخفض:

– طيب كدا بالنسبة لأول عائلتين في علاقه بينهم وبين محمد.. بس مفيش عداوات، والعائلة التالتة مفيش بينهم وبين محمد علاقة بس بينهم عداوة..

عقَّب حسين على كلامه قائلًا:

– بالظبط يا فندم..

خلعَ أحمد نظارته الشمسية، وهو يُعدّل من جلسته ليصبح مواجهًا لحسين وهو يقول له:

– طيب معرفتش إيه سبب المشكلة اللي حصلت بينهم.. إيه السبب اللي خلى محمد يحاول يعتدي على الشخص دا..؟

رد حسين:

– والله يا فندم هو موضوع طويل شوية.. بس أنا عرفته.

عدل أحمد من وضع كرسيه فجعل ظهر الكرسي مائلًا للخلف، وفرد نفسه عليه مسترخيًا، وهو يقول له:

– إحكي يا حسين..بالتفصيل الممل..



اللَّطمة الثالثة

أحد أيام شتاء عام 2000

أصبح عمر محمد ثمانية عشر عامًا، وقد وصل سالمًا إلى منتصف مرحلة المراهقة.. تلك المرحلة العبثية من حياة الإنسان المرهونة تصرفاتها وقراراتها بالهرمونات وطغيانها على جسد الإنسان.. كان في ذلك الوقت من عمره يستطيع التكلم بحريةٍ بدون قيود، ويستطيع التفكير، والتحكم التام والكامل بجسده، واستردَّ جزءًا كبيرًا من حُرِّيَّته المسلوبة بدون سببٍ معروفٍ، هل كان لديه حرية من الأساس حتى تُسلبَ منه..؟

لكنه برغم من تحسُّن حالته الصحية، والنفسية قد آثر الصمت، والوحدة، وتجاهَل الآخرين.. فالصمتُ أحيانًا يصبح عالمك الأوحد



يبتلعك داخله، يشعرك بالراحة والأمان، والاحتواء، يصبح دنياك وواقعك وأجمل أحلامك وحتى أشنع كوابيسك.. كان يكتفي بمشاهدة الناس يتكلمون، يصرخون، يحزنون، لكنه لم يكُ يريد مشاعرهم المزيفة منها والحقيقية.. كان يريد الوحدة، كان يعيش بلا سببٍ وبلا منطق.. يشرب القليل ليأكل الأقل لكيلا ينام.. كان كعادته قد نجح في مغافلة والديه وإخوته ليخرج هائمًا على وجهه.. يسير بدون كللٍ أو مللٍ.. يسير بدون هدف أو اتجاه.. كان بوصلةً فقدت صوابُها في المحيط..

حتى رآها.. تلك الفتاة السمراء.. آية من آيات قُدرة الخالق في خلقِه.. لم يكن قد رآها من قبل.. عيناها السوداوان التي تُشعل الرغبة في قلب أي ذكر.. جسدها الذي قد يتمكن بسهولة من إدارة رقبة أغلظ الرجال في جميع الاتجاهات دون عناء.. كانت ملامحها مصرية بسيطة مُحبَّبة للنَّفس، وتُسرُّ الناظرين.. تجعلك لا تملُّ النظر إلى وجهها.. مرت من أمامه كنسمة صيفية عابرة بعثت في نفسه إحساسًا لم يكن قد اختبره من قبل.. لم يشعر بنفسه وهو يسير وراءها كالمأخوذ.. كانت تسحبه وراءها بحبلٍ غير مرئي.. أخذ يسير وراءها.. لم يشعر بوقتٍ يمضي أو مسافةٍ تُقطع..

شذا عِطرُها عطّل كل حواسِّه الأخرى.. حتى وجدها صاعدة إلى أحد البيوت، وبدون تفكير أو تردُّد ذهبَ وراءها.. حتى عاد عقله



للعمل بغتةً، وحذّره بأن المُضي قدمًا في هذا الطريق قد يُوقِعه في ورطة لا فِكاك منها.. فتراجَع عدة خطواتٍ إلى الوراء..

ووقف أمام منزلها، لم يدرِ كم مَرَّ عليه من الوقت وهو لا يزال واقفًا أمام منزل فتاته.. كان يريد أن تطلُّ عليه لحظاتٍ حتى يستطيع الذهاب إلى منزله وهو مُرتاح البال.. لكنها لم تطلّ عليه.. رَكَلَ حجرًا صغيرًا بطرف حذائه.. ثم سار متخبطًا في الشوارع وأزقّة قريته الصغيرة.. حتى وصل إلى منزله، وكالعادة سمع من والده كميةً من السباب، والإهانات قد تكفيه هو وإخوته طوال عمرهم.. لكنه لم يُلقِ بها بالًا، ولأول مرة منذ سنوات طويلة يشعر بالرغبة في الحياة، ونام نومًا هنيئًا في تلك الليلة.. استيقظ محمد في صباح اليوم التالي ووجهه مُشرق.. هناك فرصة ثانية لكي يراها مرة أخرى..

تعجَّب جميع من حوله بما يرونه على وجهه من ابتسامة.. حتى أبوه قد ظن أن ولده قد جُنَّ رسميًّا.. لم يُغافِل والده هذه المرة كي يخرج.. بل ذهب إليه، وطلب منه أن يسمح له بالخروج كي يُروِّح قليلًا عن نفسه مستخدمًا كلمات بسيطة في التعبير عن رغبته، وإن كانت كافية ليسمح له والده بالخروج من المنزل، وكانت أيضًا كفيلة بإثارة تعجُّب والده إلى أقصى درجة ممكنةٍ..

خرج محمد من باب منزله، ولأول مرة منذ سنوات يرى أن قريته ليست كئيبةً إلى تلك الدرجة، ولأول مرة أيضًا يرى أن أشعة



الشمس ليست مزعجة بقدر ما هي دافئة، ولأول مرة منذ سنوات بعيدة يخرج من بيته صوب هدفٍ مُحددٍ ووجهة واضحة.. سار في الطُّرقات، والأمل ينتعش ويكبر بداخله، ومضى قُدُمًا في طريقه حتى وصل إلى بيتها، وقف أمامه لحظاتٍ.. لم يدر ماذا يفعل.. فسار حتى وقف على الإفريز المقابل لبيتها.. هو لا يعلم أي شقةٍ تقطن..

هو ليس بيده شيء سوى الانتظار، ومَرَّ اليوم بأكمله بدون أن يراها.. بدأ اليأس يحتلُّ المواقع التي قد فقدها من قبل في روحه، وعاد إلى منزله بخُفي حُنين مع عزمه على تكرار الكرَّة مرةً أخرى غدًا..

استمرَّ محمد على هذا المنوال مدة ثلاثة أيام.. هي لا تخرج من بيتها، وهو ينتظرها تحت شُرفتها.. كواجب أي عاشق تجاه معشوقته، وفي أحد الأيام وهو يمارس طقوس عشقه.. فوجيء بيد غليظةٍ تمسكه من ساعده بقوة، وصوت غاضبٍ يقول:

– إنت مستني حد هنا يا أستاذ؟

يستدير محمد إلى مصدر الصوت ليجده شابًّا في أوائل العقد الثاني من عمره طويل القامة، أسمر البشرة، أجعد الشعر أسوده، ويرتدي عوينات طبيةً..

يتكلم محمد ليخرج صوته متحشرجًا، وهو يقول بصوتٍ حروفه متقطعة:



- لا..مفيش.

استشاط الشاب الأسمر غضبًا وهو يصيح به:

- بقالك كذا يوم يا محترم بتيجي تقف نفس الوقفة دي.. بالساعتين تلاتة.. يا ريت تفهمني إنت عايز إيه بالظبط؟!

آثر محمد الصمت وهو ينظر إلى المترل بأسًى.. يحاول أن يشرح ما كان يفعله.. لكن الكلمات لا تسعفه، وبصمته يزداد الشاب الأسمر هياجًا فيقوم بدفعه بقوة فيسقط على الأرض، وهو يصيح به في غضب:

- إنت شكلك حرامي يلا أنت.. صح؟!، أحسنلك تمشي من هنا بدل ما أسلمك للمركز.

نهض محمد عن الأرض وهو يشير بإصبعه ناحية المترل وهو يقول بصوت متقطع:

- أنا.. مش حرامي.. أنا بس...

لم ينتظر الشاب حتى يُنهي محمد كلماته التي لا تُسمن ولا تغني من جوع، وقام بلكمه على وجهه عدة لكمات متتالية.. لم يحتمل محمد عند هذا الحد، فحاول الدفاع عن نفسه وتعالت أصوات الصياح.. فبدأ المارة بالتجمهُر، ومحاولة الفصل بين المتشابكين، والفتى الأسر يرغي ويزبد ويسب ويلعن ويتوعد محمدًا..



بينما نجح المارة في الفصل بينهما، ومحاولة البعض منهم تهدئة الفتى الثائر لكن كلماتهم تتهوه في زحام الأصوات المرتفعة..كان هناك عدة أشخاص ممسكين بمحمد ويحاولون تهدئته، فغافلَهم وأخرج من جيبه سكينًا صغيرًا، ودفع أحدهم وركضَ ناحية الشاب الأسمر وضربه بالسكين.. لحُسن الحظ لم تختر السكين موضعًا جيدًا لتستقرّ به في جسد الشابِّ، ولكنها جرحته فقط جرحًا سطحيًّا..

تفاجأ الناس من ردة فعل محمد فقاموا بالتكالُب عليه حتى نجحوا في استخلاص السكين منه..وهو يصرخ ويصرخ ويصرخ..حتى فَقَدَ الوعي..

***

– يعني يرجع ينتقم منه بعد الوقت دا كله، وبالطريقة البشعة دي؟!

قالها المقدم أحمد بصوت ذاهل بعد أن عدَّل وضع كرسيه في سيارة الرائد حسين القابعة أمام مبنى مديرية أمن المنيا..

ليرد عليه الرائد حسين قائلًا:

– رغم إنها حاجة مستبعدة بس هتفضل محتملة برضه ولو بنسبة قليلة..



هرش أحمد في رأسه وهو يفكر بصوتٍ عالٍ:

- طيب كدا يبقى عندنا دافع لجريمة واحدة.. إيه دافع باقي الجرايم؟!

مط حسين شفتيه دلالة على الحيرة مُقرنًا ذلك برفع كتفيه..

في حين أضاف أحمد:

- بس دا يخلي محمد دا مشتبه فيه أول..

هَمَّ حسين بفتح شفتيه ليقول شيئًا ما إلى أن قاطعه صوت رنين هاتفه المحمول، فاستأذن المقدم أحمد ليرد على المكالمة، فأشار له هذا الأخير بعدم اكتراث ليرد حسين على هاتفه:

- أيوه.. لقيتوها فين؟ طيب تتحرّز وتروح معمل الطب الشرعي، وتتقارن بدم المجنى عليهم وتبلغوني بالنتيجة أول ما تطلع..

ثم أغلق هاتفه وهو يزفر بارتياح ليسأله أحمد في لهفة قائلًا:

- ها..في جديد؟

يرد عليه حسين بلهجةٍ مُنتصرة:

- طبعًا.. رجالتنا لقوا جزمة عليها آثار دم، مرمية عند ساقية قريبة من بيت من البيوت اللي حصلت فيه الجريمة، الدم هيتحلّل، وهنشوف هو دم مين..



ثم انخفض صوته فجأة، وهو يقول بخيبة أمل:

– وبعد كدا ندوّر على صاحب الجزمة..

لينتفض أحمد من شدة الانفعال، وهو يقول له بصوت متحمِّس:

– اسمعني كويس.. اعرفلي النتيجة، وبلغني بيها أول ما تطلع، وأنا هطلّع أمر من النيابة بتفتيش بيت محمد عبد القادر..

تعجَّب حسين وهو يقول بلمحة سخريةٍ:

– يعني يا فندم لو هو القاتل، وحب يتخلّص من جزمته هيرمي فرده، ويروح بالتانية يعني..؟

نظر له أحمد نظره كادت تُرديه قتيلًا وهو يقول له بغضبٍ مكتومٍ:

– مالكش دعوة يا حسين..؟.. كدا كدا حتى من غير أمر نيابة أنا كنت هعمل للواد دا زيارة وأضايفه عندنا كام يوم.. فتبقى باتهام رسمي مرة واحدة أحسن ما نفضل نلف حوالين بعض..

ثم نزل من السيارةو وأغلق بابها خلفه، وهو يدخل رأسه من شباكها ليقول لحسين:

– إنت إطلع على المعمل الجنائي، وأول ما تظهر نتيجة تحليل فردة الجزمة بلغني على طول، وأنا هشوف موضوع التصريح..



أومأ له حسين إيجابًا فعاد ليقول:

- يالا شوف إنت هتعمل إيه..

ثم عاد مرة أخرى إلى مبنى المديرية..

***



قبل حُدوث المجزرة بأسبوعين تقريبًا.. جلس عبد القادر، وصديقه الشيخ زكريا في منزل الأخير يحتسيان الشاي، ويدخنان المعسل، وقال عبد القادر وسُحبُ الدخان الكثيفه تخرج مصاحبة لكلماته:

- طيب يعني دلوقتي الجن الراصد دا هيسيبنا عادي ندخل جوا المقبرة،ولا هيمنعنا؟

ردَّ عليه زكريا بعد أن تناول لي الشيشة الصغيرة من يد عبد القادر ثم يمسح مبسمها وهو يقول له:

- بُص.. التضحية اللي هنعملها دي يدوبك تخلّي المارد دا يفك الرصد عن المقبرة، ويسيبنا ندخل براحتنا.. بس برضه هو متقيّد داخل المقبرة.. يعني عايش فيها، ومحبوس جواها، ومتعرفش هو ممكن يعمل إيه..؟



بدأت علامات القلق تغزو وجه عبد القادر وهو يقول لصديقه:

- يعني إيه..؟ هنعرف نفتح المقبرة ولا لأ؟! أنا كدا بدأت أتوغوش يا زكريا.. رسّيني علي بر..

ضحك زكريا وهو يناول عبد القادر لي الشيشة قائلًا:

- هفهمهالك.. دلوقتي فيه نوعين من الدم.. دم حيواني، ودا نفك بيه رصد، نعمل بيه عمل صغير، نفتح مجال نتواصل فيه مع الجان، وأحيانًا برضه بتطلب منهم طلبات، وبتتنفذ بس طبعًا في حدود المعقول..

صمت لحظات، وسُحب الدخان تتكاثَفُ فوقهما في حين أخذ عبد القادر يستحثه على الإكمال قائلًا في نفادٍ صبر:

- ها..النوع التاني؟

ابتسم زكريا ابتسامة خبيثة وهو يقول:

- الدم البشري..

صُعِقَ عبد القادر من الإجابة، وإن كان يتوقعها، في حين تابع زكريا:

- الدم البشري دا بقى يا سيدي.. يفتح لك كل الأبواب المقفولة.. تخيَّل إنك لو حافظ قسم معين خاص بملك من ملوك الجان



السبعة، ومعاك دم بشري طازة بمعنى إن الميت لسه مقتول حالًا، تقدر تتحكّم في قبيلة كاملة من الجن..

بُهِتَ عبد القادر وهو يقول:

– قتل!!.. لا هي عمرها ما توصل للقتل..

ثم غلبته طبيعة البشر الفضولية والجشعة وهو يسأل صديقه قائلًا:

– بس قبيلة كاملة من الجن تعمل بيها إيه..؟

رد عليه زكريا وقد أصبح كتلة مجسمة من الخبث:

– يوووه تعمل بيها بلاوي يا عبد القادر يا أخويا..

أخذ عبد القادر يفكر في كلام صديقه الذي انشغل بتدخين المعسل وزيادة حجم السحابة المتكثفة فوقهم ثم عاد ليقول:

– طيب إنت برضة مقولتليش نحرر المارد دا من المقبرة خالص إزاي..؟

رد عليه زكريا ببساطة قائلًا:

– بدم إنسان..

ثم اتسعت عيناه قليلًا وهو ينظر إلى وجه صديقه بتفرُّس ثم قال:

– بس بقولك إيه.. دماغك متوديكش للحتة دي نهائي.. أضرارها كتير، ولو خيشت قول على نفسك يا رحمن يا رحيم.. المارد بعد ما يتفك مش هيسيبك..



رد عليه عبد القادر:

- أنا مبفكّرش في كدا خالص، أنا بسأل مجرد سؤال، وبعدين إنت محسّسني ان الموضوع سهل يعني.. هنجيب حد من الشارع، ونقوله معلش سامحنا هنقتلك عشان نفك الرصد عن مقبرة؟

ثم ضحك في سخريةٍ،وتبعه صديقه، وضحك معهما الشيطان.

***



كان المقدم أحمد جالسًا على مكتبه، وأمامه منفضة مليئة بأعقاب السجائر.. حتى أن الكثير من الأعقاب قد سقطت خارج المنفضة لأنها لم تجد لها مكانًا وسط من سبقها، وقد كان مُنهمكًا في قراءة أحد المقالات عن المذبحة في إحدى الصحف الحكومية الرسمية.. ثم انتفض فجأة عن مقعده عندما اقتحم الرائد حسين المكتب عنوة بدون أي مقدمات، وهو يقول صائحًا في انفعال:

– الدم اللي على فردة الجزمة اللي لقيناها عند الساقية طلع دم واحد من الضحايا فعلًا يا أحمد بيه..

ثم بُهِتَ فجأةً، وأحسَ بالخطأ الفادح الذي ارتكبه عندما رأى نظرة الغضب واللوم الواضحة على وجه أحمد.. فتنَحْنَحَ قائلًا في أسف وصوت خفيض:

– أنا أسف يا سيادة المقدم حضرتك اللي أمرتني لما تطلع نتيجة التحاليل أبلغك على طول..

بقيت النظرة الغاضبة على وجه أحمد، وهو يقول بصوت حادٍّ:

– قولتلك تبلّغني.. مش تيجي تكبس عليا بالشكل دا.. هو اللي هتتعلّمه في الأكاديمية هتيجي تطبقه عليا يا سيادة الرائد؟

انتصبت قامة حسين في وقفة عسكرية ثابتة في حين نهض أحمد عن مكتبه، ثم التقط معطفه من فوق ظهر مقعده وهو يرتديه على عجل ثم قال:

– جهّز قوة.. هنطلع على بيت اللي إسمه محمد دا..

فقال حسين بصوت متردد:

– طيب يا فندم حتى لو فرضنا إن الجزمة دي بتاعت محمد عبد القادر وهو إتخلص من فردة واحدة.. إيه يمكن إنه يكون إتخلص من الفردة التانية في مكان تاني كتمويه يعني..؟

رد عليه أحمد غاضبًا:

– مش شغلك خالص يا حسين.. الواد دا مشتبه فيه رئيسي سواء طلعت جزمته أو لأ، وأنا أعتقد إني قولت لك قبل كدا إني هعمل زيارة للواد دا، وكدا كدا هيتضايف عندنا..



ثم زَفَرَ في حنق وهو يقول:

– محدّش ساينا في حالنا يا محمد.. الدنيا كلها شغالة تقطيع في فروة الداخليه.. القضية مش سهلة، وأول مرة نمر بيها.. المجتمع كله مطلعنا مقصرين.. لازم نقفّل القضية دي في أسرع وقت ممكن، وعلى فكرة دا مش كلامي أنا لوحدي بس..

وصمت لحظاتٍ أمام حسين الذي بدا كطلاب يوبخه معلمه على خطأ اقترفه ثم استطرد قائلًا:

– دا كلام كل القيادات.. كل يوم زيادة بيعدي، ومفيش متهم هيفتح علينا أبواب إحنا مش هنعرف نسدها.. لأن القاتل لو محدش لقاه.. هيبقى فيه كبش فدا، ومش كبش واحد.. لا كتير أوي يا حسين..

نظر له حسين في خوفٍ وقد بدأ يفهم ما يلمح إليه، فقال بصوت خاضع:

– تحت أمرك يا أحمد بيه.. القوة هتبقى جاهزة خلال عشر دقايق..

ثم أدى التحية العسكرية، وغادر المكتب على عقبيه دون أن يغلق الباب خلفه.. بَقِيَ أحمد ساكنًا لحظات..ثم غادر المكتب بدوره.

***



"كل من يفتح قبري، يقرأ حروفي، يمسك بيده أغراضي..

قد حكم على نفسه وعلى أرضه بالوباء.. والقتل.. والدم.. والجوع".

***

سمع عبد القادر طرقات عنيفة على باب منزله..فنظر إلى زوجته بتعجُّب..في حين هرول أصغر أبنائه لفتح الباب..وبمجرد أن فتح الصبي تراجع خطوات إلى الخلف مرتبكًا..وتبعه دخول العديد من ضباط الشرطة وأفرادها، بعضهم يرتدي الزي الرسمي والبعض الآخر يرتدي ملابس مدنية..وفي مقدمتهم كان المقدم أحمد..الذي دخل وهو يفحص جميع وجوه من بالمنزل حتى تسمَّرت عيناه على عبد القادر..الذي نهض من مجلسه في خوف وإن كان مظهره الخارجي يوحي بالثبات وهو ما لم يعجب المقدم أحمد..

تقدَّم المقدم أحمد بضع خطوات داخل المنزل وهو يواجه عبد القادر قائلًا له بغلظة:

- إنت عبد القادر الأسيوطي؟

ليرد عبد القادر عليه بصوت جاهَدَ حتى يخرج طبيعيًّا بدون أي انفعالات قائلًا:

- أيوه يا سعادة الباشا..أنا عبد القادر الأسيوطي..



عاجَلَه أحمد قائلًا:

– ابنك محمد موجود هنا..؟

خَفَقَ قلبُ عبد القادر بشدة وهو يقول بصوتٍ مرتجفٍ:

– ماله ابني يا سعادة البيه..؟

أشار أحمد بيده إلى رجاله قائلًا لهم بلهجة آمرة:

– اقلبوا لي الزريبة دي..

لتلطم الأم على وجهها وهي تبكي في حين حاول عبد القادر الاستفسار من أحد الضباط المارين من جواره عن سبب مجيئهم لمترله..

فأمسكه حسين من ذراعه بقسوة وهو يقول:

– إهدا كدا بدل ما تتشد إنت كمان..

ثم دفعه ليسقط على أحد الكراسي في حين تعالى صُراخ ابنه الصغير، وبدأ صوت زوجته يعلو بالصراخ لكن نظرة صارمةً من أحمد أجبرهما على إسكات صراخها وإن بقيَ صوت نحيبها وتشنجها واضحًا..ثم اقترب أحمد بهدوء وهو يقول لعبد القادر:

– متخافش مش هنطول..ثم مال نحوه وهو يقول له:



- ابنك محمد..هنا؟

يومئ الأخير برأسه إيجابًا وهو يقول بصوت متقطع:

- أيوه يا بيه..

نَظَرَ أحمد حوله بارتياح وهو يرى رجاله يقلبون المنزل رأسًا على عقب..تكسَّر أثاث المنزل وبُعثرت مُحتوياته وأُلقيت على الأرض.. وبعد لحظات أتى الرائد حسين ومعه عسكري متشبثًا بيد محمد بقوة..

وقف أحمد أمام محمد ها هو يراه لأول مره..شابٌّ أسمر اللون، عريض المنكبين..عيناه سوداوان ذاهلتان لا تستطيع قراءة ما يدور خلفهما..يرتدي جلبابًا صعيديًّا رماديَّ اللون..شعر قصير أجعد..ملامح هادئة لا تنمُّ عن أي تعبير..تعجَّب أحمد من نظراته الهادئة..شخص مثله وفي موقف مماثل لموقفه لكان الآن يبكي كطفل صغيرٍ يستعدُّ للدخول إلى طبيب الأسنان..لكن هذا الهدوء..هدوء قاتل.

اقترب منه أحمد وهمَّ أن يقول شيئًا..إلى أن ارتفع صوت أحد أفراد الشرطة وهو يقول بصوتٍ منتصر كمن فتح عكا:

- لقينا دي يا أحمد باشا.

كان مُمسكًا في يده فردة الحذاء الأخرى التي تقبع أختها في معمل الطب الجنائي..التفت أحمد إلى فرد الشرطة ثم أمر العسكري بالاقتراب..وأمعن النظر في الحذاء حتى تأكد من تطابقها مع سابقتها.. فتنفَّس الصعداء وأعاد النظر إلى عبد القادر قائلًا له:

– ابنك متهم بقتل العشرة اللي ماتوا هنا في البلد.

ثم صاح قائلًا فيمن معه:

– خدوه..

تعالى صوت صُراخ الأم والعساكر يسحبون ابنها من ملابسه ويجرجرونه وتحاول الاقتراب منه وتخليصه من أيديهم، والعساكر يمنعونها بغلظة وقسوة ويدفعونها بعيدًا..في حين صُعِقَ عبد القادر وقد اتسعت عيناه قائلًا:

– مستحيل يا باشا ابني ميقدرش يعمل كدا..

أشار له أحمد، بالصمت ثم أشار إلى رجاله أن يغادروا..في حين قام عبد القادر بالسير وراءه ولهجته تتبدل بين الخوف والتوسل والضراعة:

– طب إنتوا واخدينه فين؟ ابني بريء والله معملش حاجة..؟ طب قولي يا سعادة البيه هتودوه فين طيب..؟



لم يتلقَّ عبد القادر جوابًا من أحد، وبدأ رجال الشرطة يركبون سياراتهم وبدؤوا في المغادرة تاركين جمهرة من الناس تلتفُّ حول عبد القادر..وأيادي أكفها تضرب أخماسًا في أسداس..

***

جلس المقدم احمد في منزله بالقاهرة..بعد أن أتمَّ مهمتَه في المنيا..وتقدَّم بطلب الحصول على إجازة وتمت الموافقة عليه..وها هو ينعم بإجازته في منزله..وينتظر ليرى ماذا سيحدث في قضية القرن..

لقد تم تقديم محمد عبد القادر إلى المحاكمة بتهمة القتل العمد لعشرة أشخاص، وقبل إتمام محاكمته..طلبت المحكمة الكشف عن سلامة قواه العقلية..لتتحدد مدى قدرة المتهم على السيطرة على أفعاله وأقواله..وجاء التقرير ليثبت إصابة المتهم باكتئاب شديد مُزمن..وعقدة اضطهاد شديدة..وبدايات هوس جنسي..وكذلك ضلالات سمعية وبصرية..

اليوم هو موعد محاكمة محمد عبد القادر..السفاح..سفاح القرن الحادي والعشرين..وكالعادة بدأت الصحف والبرامج بالتفسير ووضع الاحتمالات ومسببات حدوث تلك المذبحة..هناك مَن تحدث عن تجارة الأعضاء..هناك مَنْ تحدث عن ثأر قديم بين المجني عليه والمتهم..هناك مَنْ تحدث حول الجان، وأنهم هم مَن قاموا بتلك المذبحة..الأغرب أن هناك مَن قال إن هذا غزو من الفضاء



الخارجي..وتلك كانت طقوس فتح بوابة بين كوكبنا وكوكبهم..في النهاية لم يترك الإعلام المصري احتمالًا إلا وقد تحدث فيه..

كان أحمد يتابع وقائع جلسة محاكمة محمد عبد القادر على إحدى قنوات التلفاز الحكومي..كان محمد واقفًا في قفص الاتهام..حائرًا، مُرتبكًا، معزولًا عمَّا حوله..لكنه ليس خائفًا بأي حال من الأحوال. لم يرَ أحمد في نظراته خوفًا أو تراجعًا..

دخل القاضي إلى مقر الجلسة وبدأ في تلاوة نصِّ الحكم..

"بسم الله الرحمن الرحيم..خير للإمام أن يخطئ في العفو..عن أن يُخطئ في العقوبة..لذلك حكمت المحكمة حُضوريًا ببراءة المتهم محمد عبد القادر الأسيوطي..من التهمة المنسوبة إليه؛ وذلك لتضارُب الأدلة الفنية وتناقضها..وكذلك استنادًا إلى بطلان إذن النيابة العامة بالقبض على المتهم لكونه قائمًا على تحريات غير جدية..وعدم مراعاة إجراءات التحريز بالنسبة للمضبوطات من أدلة الاتهام..وكذلك عدم تصور ارتكاب المتهم للجريمة بمفرده بدون إيقاظ أي من المجني عليهم مستندة إلي ذلك علي تقرير الطب الشرعي.. وأيضًا عدم وجود اعترافات مسجلة ورسمية أدلى بها المتهم بعد ضبطه وإحضاره مباشرة. رُفعت الجلسة"

أغلق أحمد التلفاز بواسطة جهاز التحكم عن بعد ثم التقط سيجارة من علبة سجائره، وأشعلها ثم سحب منها نفسًا عميقًا.. وعقله

يستعيد الأحداث ويرتبها ترتيبًا منطقيًّا..بأيٍّ حالٍ من الأحوال..محمد ليس القاتل..؟ ليس هناك قاتل..هناك قتلة..

لا يوجد شخص واحد قادر على ارتكاب تلك الجريمة في تلك المدة الزمنية المحدودة وبتلك المهارة والاحترافية..

ثم استعاد عقله بعض ما سمعه من زملائه في الإدارة بالقاهرة.. أن تلك الجريمة تقف خلفها واحدةً من أعتى منظمات التجارة بالأعضاء في العالم أجمع..لكنه لم يقتنع بهذا..هناك أمرٌ غير واضح..هناك أمرٌ خارقٌ للطبيعة حدث هناك في تلك البلدة..هل هو جِنٌّ فعلًا مَن قام بقتل هؤلاء الأشخاص..؟

استهجن تفكيره بتلك الطريقة، وبهذا الاقتراح بالذات..وإن ظل هناك جزءٌ صغيرٌ في عقله يُرجِّح هذا الاحتمال أو على الأقل..يقترب منه وبشدة..

***

بعد شهر من نُطق حكم البراءة على محمد عبد القادر..وبعد نسيان الموضوع بشكل تدريجي..كما هي العادة لدى المصريين..تم إعطاء الموضوع أكبر من حجمه..ثم نسيانه بشكل تدريجيٍّ فيما بعد ليحل محله موضوع آخر قابل للنقاش والجِدال..



كان المقدم أحمد غارقًا في سُبات عميقٍ في منزله بالقاهرة..كان مُرهقًا..عقله يرفض أنصاف الحلول..لذلك كان يفكر: من القاتل؟ أو ما القاتل؟ ربما هو تأنيب الضمير لإلقائه القبض على بريء..لكن تلك كانت الأوامر..وهو لا يفعل شيئًا سوى تنفيذ الأوامر..وبدقة..

ارتفع صوت رنين هاتفه..فأمسك الهاتف بيد مخدرة لم تستيقظ بعد..رد على المكالمة فوجد صوت أحد زملائه بإدارة البحث الجنائي يقول له:

– إلحق يا أحمد الدنيا هنا مقلوبة في الوزارة..

نجحت تلك العبارة في سحب كل أثرٍ للنوم في جسده، فانتفض أحمد معتدلًا على سريره وهو يصيح قائلًا:

– في إيه؟ إيه اللي حصل؟

ردَّ عليه زميله قائلًا:

– الواد محمد عبد القادر اللي كان متهم في قضية مذبحة المنيا..

رد عليه أحمد بنفاد صبر قائلًا:

– ما تقول يا ابني في إيه؟

رد عليه زميله بصاعقة كادت أن تحرقه في فِراشه:



- لقوه النهاردة الصبح ميت بنفس الطريقة اللي اتقتل بيها الناس هناك..وكمان أهله كلهم مختفيين ومش عارفين نوصل لحد منهم..

أخفض أحمد الهاتف عن أذنه بالرغم من أن صوت صديقه ما زال يتردد..وهو يشعر أن الأيام القادمة..ستحمل الأسوأ فالأسوأ..

***

استمرت حالات القتل بنفس الطريقة البشعة في تلك القرية الصغيرة بمحافظة المنيا لتحصد أرواح مئات المواطنين..حتى بدأت تتوسع لتخرج المذابح من حيز تلك القرية الصغيرة وتتوسع في جميع محافظات مصر..قرًى بأكملها يموت أهلها بنفس الطريقة..الذبح، بقر البطون، قطع بعض الأعضاء من الجسد، استخلاص تامٌّ للدماء ولبعض الأجهزة الحيوية داخل الجسد..

ليت الأمر اقتصر على هذا فقط..ضُربت بعض المدن المصرية بوباء غامض..أعراضه لا تتعدى أعراض نزلة برد صغيرة..ولكنه ينتهي بأعراض مفزعة..ارتفاع درجة حرارة الجسد لدرجة احتراق بعض الأعضاء الداخلية للجسد..النزيف الشديد من فتحات الجسد كافة..

عجزَ الطب العضوي أو النفسي عن كشف ما يحدث..بدأت الدولة المصرية في الانهيار..أصبحت الفوضى عنوانًا



للموقف..الضحايا يسقطون في الشارع بدون أي مقدمات..أشخاص يناموِن ولا يستيقظون..انتشرت جرائم القتل بطريقة مُفزعة..وبدأ سيل من الأمراض الغريبة يضربُ المصريين..أُبيدت مُدنٌ وقرًى..تلوّث النيل..وعجز المصريون في تلك الفترة عن مواجهة الأمر..حاولت بعض الدول مَدَّ يد العون إلى مصر..لكن الأمر تحوَّل إلى كارثة عالمية..وبدأت أغلب دول العالم تعاني مما تعانيه مصر.. وأصبح الدمار هو السمة الأساسية لكوكب الأرض..وصار مصير البشر على المحكّ..

القاهرة..

عام 2050..

داخل أحد الأوكار السِّرية للمقاومة المصرية..التفَّ عدد من الشباب لا تتجاوز أعمارهم العشرين عامًا..حول رجلٍ أشيب الشعر تظهر على وجهه علامات الحكمة والهيبة والوقار ولمحة من القوة رغم تقدُّم سنِّه..كان قد تجاوز السبعين عامًا في هذا الوقت..

ارتفع صوته قائلًا:



- علمنا فيما بعد أن تلك المقبرة الفرعونية كانت تحوي بقايا حضارة سابقة..حضارة سادت الأرض منذ ملايين السنين، ولكنها اندثرت لأسباب مجهولة بالنسبة لنا..كان يوجد في تلك المقبرة صندوق معدني صغير من بقايا حضارة أطلانتس البائدة حمله أحد الناجين من معركة حضارته مع تلك الكائنات واستقرَّ به الحال في مصر الفرعونية..

كان الشباب يبدو على وجوههم علامات التركيز الشديد وهم ينصتون إلى كلام العجوز باهتمام الذي تابع قائلًا:

- بعد أن قام أحد الأشخاص بفتح تلك المقبرة..بدأت تلك الكائنات في التحرُّر..فبدأت في احتلال أجساد البشر ودفعهم إلى قتل بعضهم البعض ومن يموت..يكون غذاءً لهم..وبطريقة ما لم يعرف علماؤنا كُنهها إلى الآن قاموا بنشر أمراض وأوبئة معدية..فتكت بأجيال كاملة من البشر في غضون أيام..ولم تُفلِحْ جيوشُنا أو عتادنا في وقف تقدمهم..وبدأت مُدُننا تسقط الواحدة تلو الأخرى في أيديهم..

ثم التمعت عيناه ببريق غريب وتحمَّس صوتُه المُتهدِّج وهو يقول:

- لكننا لم نستسلم..ولم نيأس.

ثم صمت لحظاتٍ ليسيطر على انفعاله الجارف وهو يقول:

- بدأنا قتالنا معهم..وحاربناهم بكل ما نملك من قوة وتكنولوجيا..وضحَّى العديد من البشر بأرواحهم..

ثم انخفض صوتُه وتخللته بعضُ الحسرةِ وهو يقول:

- صحيح أن الحال لم يختلف كثيرًا..ولكننا نجحنا في الحفاظ على جنسنا البشري.. وقُمنا ببناء مخابئ ومستعمرات بعيدًا عنهم..وعن منطقة نفوذهم وسنستمرُّ في قتالهم حتى نقضي عليهم ونُحرِّرَ أرضنا منهم..

رفع الشباب الموجودون أسلحتهم في حماسة وهو يقولون بعزم: - من أجل الأرض..سنفعلها..

ترقرقت دمعة في عين الرجل العجوز..لكنها لم تكن دمعة ألم..بل دمعة أمل..



الجزء الثاني

المقاومة

(المعركة الأخيرة)



يفتح باب القاعة العملاق من تلقاء نفسه..

سمع جميع من بالقاعة صريره الحاد ثم دلف منه (مينوخ) أحد أعوان إبليس إلى القاعة السوداء .. كان (مينوخ) قائد إحدى سرايا جيش الشياطين .. وقد نجا من معركة الملائكة الأولى .. كان قصيرا لا يتعدى طوله المئة و خمسين سنتيمترا، ولكنه كان مقاتلا بارعا لا يشق له غبار ..

توقف على بعد خطوات من عرش إبليس ثم انحنى له احتراما ..

وهو يقول له: - سيدي المبجل العظيم .. لقد انتشر خبر موت عدوك ادم بين البشر وقد سادت بينهم حالة من الحزن عليه ..

جلجلت ضحكات إبليس في جميع أرجاء الأرض .. حتى إن البشر البعيدين عنه بمئات الألوف من الأميال أقسموا أنهم قد سمعوا ضحكاته ..

ثم توقف عن قهقهته ، و هو يصيح في جذل : أخيرًا .. مات ادم ، وترك بنيه وحدهم..

أحمد ناصر عبد الوهاب ، صدر له



قصص

جرعة رعب



رواية

ذات يوم في أوكرانيا



دار اكتب للنشر و التوزيع